الفصل التاسع

اليقظة العربية الحديثة

تمهيد

أنهيت فى مختتم الفصل الثامن بحث الصراع بين الموالى والعرب ، وكنت أود الاكتفاء بذلك لولا أننى وجدت أن من اللازم أن أضيف ملحقاً أذكر فيه شيئاً من مظاهر اليقظة العربية الحديثة إلى مواد البحث ليكون من ذلك كله سلسلة مكتملة الحلقات .

لقد وصل بى البحث فى رد الفعل على آثار الموالى إلى مفتتح القرن التاسع عشر ووجدت ذلك متمثلا بالأصول المنحدرة من تعاليم ابن تيمية التى تبناها ابن عبد الوهاب ثم جمال الدين ومحمد عبده والكواكبى .

وكانت آراء هؤلاء الأماثل تكاد تنحصر فى مجملها فى العودة إلى العقيدة الصحيحة التى جاء بها السلف الصالح من آبائنا الأولين فى صدر الإسلام والرجوع إلى هذه الروحانية السامية الكامنة فى أسرار القرآن والمأثور عن النبى (ص) وصحبه الكرام وأمجاده الأجداد .

أجل ! لقد كان ما قام به هؤلاء الأماثل رد فعل لأعمال الباطنية والسبأية التى هاجمت العقيدة بعقائد أخرى وعارضت تعاليم الإسلام بتعاليم أخرى لتأتى على أصول هذه العقيدة وتضع مكانها بناءاً مهلهلا فكان من جراء ذلك هذا الأثر العنيف الذى ترك الأمة مثخنة بالجراح تنوء بالأعباء وتئن من الآلام على أننى لن أقول إن هؤلاء الأماثل ماساهموا فى إيقاظ الرقود فى النهضة الحديثة فإن أصواتهم وإن كانت

رد فعل لنتائج الباطنية واليهودية السبأية فإنهم بعثوا فى النفوس آمالا فى توجيهها وإرشادها ولقد جاوز جمال الدين الأفغانى ذلك ونادى بطلب استعراب الأتراك بدل استتراك العرب ورجا أن يتحقق ذلك لتكون الدولة العثمانية فى مركز يجعلها تحكم هذه الأمة وتسير على أساس ما سار عليه الرشيد والمأمون فى ازدهار حضارة جديدة أما الكواكبى فقد كان يرى أن الأمة العربية أولى بالخلافة وأولى بالحكم . وكاد ابن عبدالوهاب يؤسس إمبراطورية عربية لولا تدخل الأجانب فى الأمر ولولا طموح محمد على خديوى مصر فى أن تكون له هذه المكانة .

كان من جراء ما فعلته مكائد اليهودية السبأية والباطنية أن انهارت تلك الامبراطورية المترامية الأطراف وتغاورت عليها قوى الشرق فى غزوات التاتار وقوى الغرب فى الحروب الصليبية وظلت الأمة تتأرجح بين القوة والضعف وتمزقت أوصالها إلى دويلات وتعدد الحكام فيها وصارت تلك الرقعة الواسعة تحكم بعدة عناصر من مغول وترك وشراكسة وعرب وظلت على ذلك ردحاً من الزمن حتى نشأت الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى وقويت شوكتها ففتحت القسطنطينية عام ١٤٥٣ ومشت جيوشها غازية موفقة حتى وقفت على أبواب فينا .

ولقد رأى المسلمون فى هذه الدولة الفتية قوة لحماية العقيدة وأخذوا ينظرون إليها نظر المنقذ لذلك لم يكن بدعاً أن يسكت العرب على كل ما كانت تقوم به فى بادئ أمرها .

العرب والترك

اندفع العرب من قلب الجزيرة فاتحين ومبشرين ، فاجتمعوا بإخوانهم فى الشام والعراق ، ثم انتشروا فى البلاد ، فوصلوا إلى إفريقيا وعبروا البحر إلى الأندلس وركزوا أعلامهم على جبال البرنات ، وساروا شرقاً

حتى وصلوا إلى كاشغر ، ولقد انتشرت اللغة العربية وأصبحت لغة الدين لجميع المسلمين ، يذكرون الله بها ويقرؤون القرآن وصارت لغة الكلام والأدب والعلم للأمة التى تقطن المنطقة التى تبدأ بسواحل الأطلنطى فى الغرب مارة بالشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط وتنتهى شرقاً بحدود بلاد إيران .

ولقد انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة بعد ما دمر هولاكو بغداد غير أن القاهرة لم تحتفظ بكيانها ، فاضطربت فيها الأحوال . وكانت الدولة العثمانية تزداد قوة فى كل يوم وكان فناء السن وحرة الشباب يساعدانها على النمو فى ذلك الزمان ، فافترص السلطان سليم العثمانى الفرصة وخلص العراق من حكم الفرس عام ١٥١٥ وفتح مصر عام ١٥١٧ واضطرت الحالة فى تلك الأيام الخليفة العباسى أن ينزل له عن سلطانه الروحانى وزعم بعض المؤرخين أن رسلا من سدنة الكعبة جاءوا إلى مصر يحملون مفاتيحها وبذلك صارت بغداد ودمشق ومكة وبيت المقدس والقاهرة فى حوزة آل عثمان واستطاعت هذه الدولة أن تستولى على تونس وطرابلس الغرب وبرقة دون عناء يذكر كما انضمت إليها الجزائر طوعاً . وبقيت مراكش مستقلة وبلغت سلطة الدولة العثمانية ذروتها أيام سليمان القانونى وموجز القول أن قلب الجزيرة واليمن وعدن صارت فى منطقة نفوذها أيضاً . وبذلك اجتمع الشعبان العربى والتركى تحت لواء الخلافة العثمانية وأصبحا وجهاً لوجه ، واستسلم العرب لهذا الحادث الجلل الذى حول صفحة التاريخ ونقل الخلافة من قريش إلى الترك وارتبط التاريخ الإسلامى الأمتين برباط واحد وكان الأتراك يحترمون العرب لمكانتهم المعروفة فى الإسلام فإن العرب هم الذين حملوا هذه العقيدة إلى العالم ونشروها وحموها حتى استقرت فى أرجاء المعمورة

وقد أضاءت قلوب الأتراك فيمن أضاءت من قلوب الأمم . لقد اشتركت الأمتان فى السراء والضراء وصار العربى يحارب مع أخيه التركى جنبا إلى جنب دفاعاً عن العقيدة . وأخذ العرب مراكزهم فى الدولة .

وهنا تململت اليهودية العالمية مرة أخرى وأخذت تنشر دعاياتها فى العالم الغربى على ألسنة علمائها وساستها والقائمين بالاستشراق من أبنائها . وطفقت تصور للغربيين الإسلام فى صورة الطامح للفتح واكتساح العالم خاصة بعد أن وقف العرب فى يوم من الأيام على جبال البرنات ووقف الأتراك على أبواب فينا ، ورأى المستشرقون قوة الإسلام متمثلة فيما تسمعه آذان المؤمنين فى الآيات التى تقول لهم : إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون .

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ، واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ، واذكروا إذ أنتم مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون .

يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون .

يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين .

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم .

قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم .

وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون .

يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين .

هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما .

إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون .

والقرآن مملوء بمثل هذه الآيات التى فيها الشدة والعزة والصبر والثبات والإنذار والتبشير والوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، والإخاء والترابط والتراحم والتعاون والنزوع إلى الحرية .

وتميل الآيات التى تثقف الأنفس وتهذبها وتلين الطباع وتتمم مكارم الأخلاق لتكوين الشخصية ، شخصية الأمة المحترمة .

كما لفتت اليهودية أنظار الغرب إلى موقع البلاد العربية الستراتيجى والاقتصادى ، فإن كعب الأحبار المتآمر على الخليفة الثانى لا يختلف عن عبد الله بن سبأ الذى أطلق فكرة تأليه البشر وتآمر على قتل الخليفة الثالث وأشعل أتباعه نار الفتنة فى واقعة الجمل ولا يختلف عن يعقوب ابن كلس وزير الإخشيدى الذى دل المعز لدين الله الفاطمى على عورات البلاد فى حكم سيده وهذا لا يختلف عن دزرائيلى الذى اشترى لقومه أسهم قناة السويس واحتجن للانكليز جزيرة قبرص .

وهكذا تلفتت الأمم ذات المصالح إلى مكانة البلاد العربيـــة والامبراطورية العثمانية وفتحت عيونها على هذه الدعايات اليهودية وربطت كل ذلك بالأمور الاقتصادية والمواقع الستراتجية والمصالح السياسية وكان من مجموع ذلك كله فكرة الانتباه إلى الشرق العربى بصورة خاصة .

وكان أشد دول الغرب اتجاها إليه بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا . أخذت هذه الدول تتدخل فى شئون الدولة العلية فى كل فرصة تراها وبدأت بريطانيا تنظر إلى الخليج العربى وأجزاء تركيا الأخرى نظر الطامع وشرعت فرنسا تنظر إلى شمال أفريقيا نظر المستأثر صاحب الحق .

فى عام ١٨٧٨ أخذت بريطانيا قبرص من الدولة العثمانية نظير دفاعها عنها فى مؤتمر برلين لتكمل سلسلة ممتلكاتها فى البحر الأبيض

المتوسط . ثم التفتت إلى الجنوب حيث عبر طريق الهند فأخذت تبسط نفوذها على أطراف الجزيرة العربية من الجنوب والشرق فاستولت على عدن وحضرموت عام ١٨٣٩ وشرعت تعقد مع شيوخ المقاطعات المجاورة للخليج والجزر الموجودة فيه سلسلة من المعاهدات ما كانت إلا سلاسل وقيوداً أدت إلى الاستيلاء عليها وضمها إلى التاج البريطانى وكانت القاعدة الأولى التى وثبت منها بريطانيا على العراق فى الحرب العالمية الأولى .

وكما لعبت اليد اليهودية فى أخذ قبرص أخذت تلعب فى مصر ؛ فقد استطاع دزرائيلى أن يشترى لبريطانيا ١٧٦ سهماً من أسهم قناة السويس من الخديوى الذى أثقلته الديون فأصبح لها ٢٠٧ آلاف سهم من أصل (٤٠٠٠) سهم فى القناة ، وبهذا أخذ أخطبوط الاستعمار يمد خراطيمه وانتهزت بريطانيا فرصة اضطراب البلاد فاتفقت مع فرنسا لإرسال أسطول مشترك إلى الإسكندرية واتخذت عذراً تافهاً لإطلاق يدها ومدافعها على هذه البلاد الآمنة وفى ١١ حزيران عام ١٨٨٢ ضرب الأسطول البريطانى مدينة الإسكندرية ودك حصونها ثم أنزلت بريطانيا جنودها إلى البر ، وفى ١٣ إيلول عام ١٨٨٢ التقت جيوشها بجيش عرابى عند التل الكبير فغلب الجيش المصرى على أمره وسارت جيوش بريطانيا إلى القاهرة فاحتلتها ثم أضافت السودان إلى ذلك . ولا تزال مصر تنوء بهذا الاغتصاب وتعمل ليل نهار للخلاص منه .

وفى عام ١٨٣٠ أقدمت فرنسا على فتح الجزائر فأنزلت جنودها منتحلة أعذاراً تافهة ونشرت المنشورات المذرة بالاستيلاء على البلاد وإخراج العثمانيين منها فغضب العرب لهذا الخطب الجلل وانقضوا على فرنسا وأجبروا جيوشها على التقهقر إلى الشواطئ ، ولكن ما لبث الأمر قليلا حتى عاد الفرنسيون واستولوا على وهران فانتشر الذعر وسادت

الفوضى وأثمر العرب فيما بينهم ، وكان من بين المؤتمرين محيي الدين الحسيني والد عبد القادر الجزائري ، وبعد المداولة والتشاور قر الرأي على مبايعة سلطان مراكش مولاي عبدالرحمن ، فقبل وأخذ الجزائريون يخطبون باسمه على المنابر فغضب الفرنسيون من أجل ذلك . وبعثوا إلى عبد الرحمن يهددونه بالحرب أو يسحب جنوده من الجزائر فخشيهم وانسحب .

وأراد الجزائريون مبايعة محي الدين فأبى ودلهم على ولده عبد القادر الجزائري فوافقوا وبايعوه فعقد العزم على طرد الفرنسيين ونازلهم وغلبهم واضطر قائدهم على الصلح ، وعقد معه معاهدة عام ١٨٣٤ ولكن الفرنسيين شأن كل مستعمر لا يرعون إلا ولا ذمة ، وكان عبد القادر يعتقد أنهم سوف لا يفون بما عاهدوا الله عليه فأخذ يعد لهم ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل ، فشرع يصب في بلاده المدافع ويصنع الأسلحة استعداداً لمنازلتهم ، وظلت الحرب بينه وبينهم سجالا وكثيراً ما كانت الغلبة له .

وهنا أيضاً بدأت اليد اليهودية تلعب واستولى الفرنسيون على تلمسان ووضعوا ضريبة على يهودها فندم اليهود وأخذ يتمنون العودة إلى عبد القادر فعاد إليهم واسترجعها .

وعادت فرنسا تفاوضه بأمر الصلح وبعد المداولات تم الأمر على أن يتعهد عبد القادر بعدم السماح لأي دولة أجنبية بالاستيلاء على شيء من شواطئ بلاده إلا بمشورة فرنسا وأن يكون لكل من الأمير وفرنسا قناصل في بلاد الآخر .

فلما اطمأن الأمير إلى هذه المعاهدة شرع ينظر في إصلاح أمور بلاده الداخلية وابتنى مدينة سماها تقدمة ونظم جيشه تنظيما غربياً وأنشأ

المدارس في كل مكان وعزم على افتتاح جامعة تجمع بين الثقافة الإسلامية وبين العلوم الحديثة ، وبينما كان الأمير منصرفاً إلى إصلاحاته نقضت فرنسا عهدها أيضاً . فاستولت على قسطنطينية واعتذرت عن عملها بأن المعاهدة تقضي بذلك مستندة إلى تحريف في نصوصها .

وفي عام ١٨٤٠ عززت فرنسا قوتها تحت إمرة قائد جديد فضيق الأمر على عبد القادر .

كان الأمير صنع مدينة متنقلة سماها الزملة ، فلما سمع الفرنسيون بها أخذوا يعملون ليل نهار حتى أحرقوها ، وكان لهذه المدينة من الفوائد مالها .

ظل عبد القادر يحارب الفرنسيين خمسة عشر عاماً حتى أنهك التعب وأسلمته الخيانة ، فقد نقض سلطان مراكش يده منه بل أعان الفرنسيين عليه ، ولما بلغ منه اليأس مبلغه سلم نفسه إلى الفرنسيين وبهذا التسليم طويت صفحة عربية جليلة طواها الاستعمار وانطلقت فرنسا تعمل في البلاد ما تشاء وتريد . أكرم الفرنسيون مثواه وفرحوا بهذا التسليم ، ثم مالبثوا أن اعتقلوه وسجنوه فصبر على هذا المكروه . ثم تيقظ ضميرها فأطلقت سراحه ، واختار دمشق مقراً له ، وبقي فيها معززاً مكرماً يؤلف ويرشد ، وكان وجوده في دمشق عاملا من عوامل إيقاظ الرقود .

انتهت فرنسا من الجزائر فوجهت عنايتها إلى تونس مع أن إيطاليا كانت قد وضعتها نصب عينها طمعاً في الاستيلاء عليها معتقدة اعتقاداً جازماً أن ذلك من حقها .

وفي عام ١٨٨١ احتلت فرنسا تونس وفرضت الحماية عليها بمعاهدة أملتها على الباي ، وكان سبب ذلك أن لفرنسا ديناً على تونس بمبلغ قدره

١٢٥ مليون فرنك وقد عجزت تونس عن أدائه وتشبثت بأمور تافهة أرسلت على أثرها حملة تأديبية . ووقع الباى بعد ذلك معاهدة تضطره على الاعتراف بأن لفرنسا حق الرقابة على ماليتها كما لها الحق فى إدارة شئون تونس الخارجية .

وفى معاهدة الحماية التى وضعت على تونس جعلت فرنسا للباى جعلا يقيم أوده ويصلح البلاد وقدر هذا الجعل ١٢٥ مليون وبذلك انسلخت تونس عن البلاد العثمانية بعد أن كانت جزءاً منها بالاسم .

وأخذت فرنسا تزحف على مراكش وهو القسم الأخير من البلاد العربية من جهة الغرب . وكان هذا القسم العربى مستقلا لم يخضع للعثمانيين لمناعته وقوة شكيمة أهله ، ولكن الاستعمار أبى أن يتركه حراً وفعلت فرنسا الفعائل فى إقناع الدول المتزاحمة حتى تم لها الأمر بتأييد بريطانيا وأمريكا وروسيا ، ولم يزاحمها غير ألمانيا وأسبانيا ، وأطلقت فرنسا يد أسبانيا فى الريف المغربى وشرعت تنفذ خططها خطة بعد خطة حتى كانت اتفاقية فاس فى ٤ ايلول عام ١٩١١ حيث اعترفت ألمانيا بحق فرنسا فى مراكش .

وفى اتفاقية يناير عام ١٩٠٦ انتدبت فرنسا لحماية حقوق جميع الدول فى مراكش واشترط لذلك أن تكون الجمارك تحت مراقبة دولية .

وأن تكون مراكش مستقلة بشرط أن يدير ماليتها بنك حكومى يكون مقره فى طنجة يكون تحت مراقبة بنوك الدول وأسهمه موزعة بالتساوى بينها ولفرنسا حصة الأسد من ذلك .

ولما رأت إيطاليا ما فعلت بريطانيا وفرنسا أقدمت على احتلال طرابلس الغرب وبرقة وأنذرت الدولة العثمانية الناعمة وأنزلت جيوشها فى البر بعد مقاومة عنيفة من الحامية التركية والسكان العرب وزحفت

تلك الجيوش تفتك بالبشر دون رحمة لا تتورع فى الإجهاز على الجريح وقتل الشيخ الطريح والمرأة الحاملة والطفل البرىء ، أما المقاتلة فليس لهم شفاعة فى ضمير الإيطاليين .

وهكذا أصبحت البلاد العربية التى كان يجب أن تكون كلها جزءاً عظيما وعوناً كبيراً للامبراطورية العثمانية ، مجزأة يحتل قسما كبيراً منها ثلاث دول فرنسا وإيطاليا وبريطانيا وشرعت هذه الدول تتنافس على البقية الباقية التى انحصرت فى قلب الجزيرة : اليمن ونجد والحجاز وبلاد العراق وبلاد الشام .

فتح العرب عيونهم على هذه الأحداث فرءوا أنفسهم فى خطر محدق وعيون الغرب تتربص بهم الدوائر وتركيا على فراشها تحتضر ولكن رغم هذا الاحتضار نبطت فكرة القومية التركية وبدأ الصراع بين الأمتين يأخذ دوراً مهماً فى كيان الإمبراطورية العثمانية .

عوامل اليقظة

بسطنا فى فصولنا السابقة أن للعرب ذخيرة فكرية ممتازة تتمثل فى القرآن والحديث والأدب وما أنتجه الفكر العربى فى عصوره الزاهرة وذكرنا كيف استطاع ابن تيمية أن يوجه الأمم الإسلامية والعربية إلى هذه الثروة وكيف سار على نهجه ابن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده . وأن هذه الثروة مثلها كمثل الجمر غطاه الرماد لايحتاج إلا إلى قبس يزيده اشتعالا ليلتهب ويضىء فينير الأرجاء . فإذا قيل إن الغرب احتك بالشرق فأخذ الشرق عنه . فقديماً كان الغرب فى ظلام دامس وكانت فيه كل مقومات الحضارة الكامنة مما خلفه الإغريق والرومان أغطشت سماء الغرب حيناً من الدهر حتى جاءت حضارة العرب الزاهرة ونقلت إليهم هذا التراث تارة أخرى وأحدثت فيه تلك الهزة العنيفة

التى كانت هذه الحضارة من نعائها . وهكذا أعاد الغرب تلك اليد إلى بلاد الشرق فكانت غزوة نابليون قبساً أثار الشعلة . فقد جاء نابليون إلى مصر لا ليبعث فى الشرق نهضة أو يوقظ النيام فيه وإنما غرضه من هذه الحملة الاستيلاء على مصر لمكانتها فى الشرق العربى ولأهميتها الستراتيجية والاقتصادية فهى سوق واسعة لفرنسا وهى مركز مهم بين الشرق والغرب وهى نقطة يمكن منها القضاء على نفوذ بريطانيا فى الشرق ثم هى بعد جسر مهم بين البحرين الأبيض والأحمر . زد على ذلك ما كان يدور فى أذهان رجال الدين من رد الصاع بالصاع ، فقد كانت مصر كنانة هذه العقيدة ردت الصليبيين وردت التاتار وحفظت التوحيد من كيد الكائدين كل أولئك وغيرها هيأت هذه الحملة الجبارة المجهزة بالعلماء والمختبرات .

فتح العرب فى مصر عيونهم على رجال هذه الحملة ورءوا شيئاً عجباً رءوا صحة ونشاطاً . وعملا مثمراً فأثار فى نفوسهم أملا وبعث ثقة بأن الإنسان إذا أراد « أن يفعل شيئاً فعل » .

أبحر نابليون فى ١٩ مارس عام ١٧٩٨ متجهاً إلى مصر فاضطربت فرائص بريطانيا لهذا الحادث الجليل ، ولكن كيد نابليون غلب كيد خصومه ووصل مصر وبعد مواقع حربية بينه وبين المماليك استطاع أن ينزل القاهرة وأن يعلن للملأ أنه لا يريد محو دين البلاد وإنما جاء منقذاً لها من يد الظالمين وأنه يدين بدين الإسلام بل هو مخلص للسلطان . و... وغير ذلك مما يهدىء الخواطر . ثم أصدر لجنوده الأوامر بعدم التعرض لأحد وأن يتوددوا للناس فاطمأن المصريون له ولجنوده . وأخذ نابليون يزور العلماء والمشايخ ووجوه البلد فى بيوتهم حتى إذا تم الاطمئنان من الجهتين شرع نابليون يدرس طبيعة البلاد فأنشأ مجمعاً علمياً . مكوناً من

ثمانية وأربعين عضواً فى أربعة أقسام : قسم للرياضيات وقسم للطبيعيات وقسم للاقتصاد السياسى وقسم للآداب وجعل رياسته لأحد هؤلاء العلماء وأنشأ جريدتين ومدرستين ومسرحاً للتمثيل وبنى المصانع ومعملا للورق وأسس مطبعة وفتح مكتبة عامة جمع فيها الكتب من بعض المساجد وأضاف إليها ماجاءت به الحملة وجعلها مباحة لكل من يريد الدخول فيها .

وقد قام المجمع بأبحاث قيمة وكانت هذه الأبحاث تنشر كل ثلاثة أشهر وكان رجال هذه الحملة شبه مدرسة سيارة تعلم منها أهل مصر حياة جديدة فى العمل والانتاج بل حتى فى الأمور الاجتماعية . ومن مآثر هذه الحملة العلمية عثورها على حجر رشيد الذى كان الأثر الكبير فى دراسة التاريخ المصرى القديم . لقد نظم نابليون جهاز الإدارة فى مصر وأنشأ الدواوين ورتب أمور المالية وعين لها الأكفاء من بنى مصر . وقد كان حظ مصر عظيما إذ انتهت الحملة إلى هذا الحد من الفائدة فحفظ الله كنانته وعمل الحظ عمله وتوالت الظروف فى جانب مصر فجلا الفرنسيون ومن سوء حظ هذه الحملة أن نقض رجالها العهد فأطلق الجنود أيديهم فى القرى ينهبونها ولم يعبئوا بتقاليد الشعب وديانته وفرضت الضرائب فكان كل ذلك سبباً لثورة أكتوبر عام ١٧٩٨ إذ تجمهر الناس وذهبوا لرفع الشكوى وعندما علم حاكم القاهرة الفرنسى خرج إليهم فأصيب بحربة من يد وطنية قضت عليه فاغتاظ الفرنسيون ونصب نابليون مدافعه على المقطم وأخمد الثورة بقوة وشدة أثارت الكره والحقد فى نفوس المصريين . ومهما يكن فقد أفادوا من هذه الحملة فائدة كبرى تركت أثراً كبيراً فى حياتهم وكانت نواة للنشاط الذى استقبل به محمد على الشعب المصرى .

محمد علي

تولى محمد علي ولاية مصر في ١٣ مايو عام ١٨٠٥ والبلاد لا تزال تشوى مما رأته في حملة نابليون من النشاط والحيوية والحياة الجديدة. ولكنها في اضطراب مالي وفوضى في الإدارة فأول ما عمل أنشأ المجالس والدواوين وقسم القطر إلى مديريات ومحافظات وكان الديوان العالي بمثابة رياسة الوزارة تتبعه فروع كل فرع له اختصاص كديوان المدارس وديوان الحربية وهو بمثابة وزارة المعارف ووزارة الحربية وأنشأ عام ١٨٢٩ مجلس المشورة وهو الذي يختار أعضاءه بنفسه من الأعيان ورجال الدولة والعلماء ومهمته النظر في المشروعات الكبرى ويرأس هذا المجلس ولده إبراهيم. واتجه إلى الإصلاحات التجارية والزراعية والري وكان في كل ذلك موفقاً جد التوفيق.

واهتم بالتعليم اهتماما عظيما ففتح مدارس الناشئة في القرى والأرياف والمدن. وأنشأ مدرسة للطب البشري ومدرسة للطب البيطري ومدرسة للهندسة ومدرسة للزراعة وأنشأ مدرسة الترجمة لنقل آثار الغرب إلى لغة العرب وجلب لهذه المعاهد أكابر الأساتذة من الفرنسيين لقد كان في الأزهر لمحمد علي مادة قوية ومصدر عظيم فأرسل منه البعوث إلى أوربا ففي عام ١٨٢٦ أرسل أربعة وأربعين طالباً وأخذ هذا العدد يزداد حتى جاوز المائة.

وعاد هؤلاء الطلاب من أوربا بعد أن تخصصوا في العلوم والفنون على اختلاف أنواعها من طب وهندسة وكيميا وزراعة وري وميكانيكا وطباعة وحفر فكانوا خير عون لنهضة محمد علي. وأقام المطبعة الأميرية على أنقاض المطبعة الأهلية التي كان الفرنسيون أتوا بها معهم ثم ذهبت بذهابهم. وأصدر الجريدة الرسمية عام ١٩٢٨.

وكان من أبرز رجال بعثته رفاعة بك الطهطاوى الذى ينتهى نسبه إلى الحسن بن على . نشأ هذا العالم فقيراً ولكنه كان شغوفاً بالعلم وساعده اجتهاده إلى أن ينال حظوة عند محمد على فأرسله ليكون إماما لطلبة البعثة فقام بواجبه على أتم وجه ولكنه اقترص الفرصة وانتسب إلى الدراسة شأنه شأن إخوانه ، فبرز وتقدم ولما عاد أحدث ثورة أدبية فى الترجمة وهو الذى اقترح تأسيس مدرسة الألسن فكان مديرها ورئيس تحرير الوقائع المصرية وقد ترجم كتاب مبادئ الهندسة .

وجملة القول أن محمد على أوجد جهازاً إدارياً محكما استطاع به أن يوجد دولة حديثة ذات كيان يخشى بأسها ويسمع قولها وكان يرمى من وراء ذلك إلى إيجاد مملكة واسعة الأطراف تنتظم جميع البلاد الناطقة بالضاد ومن ثم تنتقل إلى الخلافة الإسلامية وقد لاحت هذه الفكرة فى مخيلة محمد على حين قضى على الحركة الوهابية فى مهدها كما قدمنا سابقاً فقد خبر بنفسه بلاد العرب وعجم قوتهم ولم تكن فى الجزيرة قوة عربية تصمد للحرب غير تلك القوة التى غلبها على أمرها . إلا أن هذا الحلم لم يكن واضح الخطوط عنده فالدولة العثمانية التى يتبعها لن تفسح له المجال فى تحقيقه ونتيجة الأمر القضاء عليها حتما . زد على ذلك ما يقوم بوجهه من العقبات التى تقيمها مصالح الدول الكبرى . فان بريطانيا لا يسهل عليها أن تقوم دولة عربية فتية قوية فى طريق الهند . ومن مصلحتها أن تبقى تركيا مالكة زمام الأمر رغم ضعفها ، فان هذا الضعف يسهل على بريطانيا أن تتدخل فى شئونها وتملى عليها ما هو فى صالح طريق الهند فاذا أقام محمد على دولة فتية فى هذا الطريق وجب على بريطانيا أن تكون فى موقف تمنع فيه أن يمس هذا الطريق أو يتحكم فيه . والعقبة الثالثة التى تقف فى وجه محمد على عدم استعداد العرب لقبوله خليفة عليهم خاصة

بعد ما قام بقمع حركة ابن عبد الوهاب وترك جرحاً عميقاً فى قلوب أبناء الجزيرة .

أما ولده إبراهيم فقد كانت الفكرة واضحة فى مخيلته وكان يبشر بها دون خوف . لقد نشأ إبراهيم فى بلاد عربية وربى تربية عربية وتكلم بلسان عربى فصيح بخلاف أبيه الذى لا يقيم كلمة . لقد درس التاريخ العربى الذى هو جزء من التاريخ الإسلامى وتمكن فى نفسه ميل قوى لهذه الأمة بل أصبح يعد نفسه عربياً وكان لا يتوانى عن التصريح بذلك فماذا يفعل محمد على يا ترى لتحقيق فكرته وإجابة رغبة ولده إبراهيم لقد انتحل شتى الأعذار لغزو سوريا وكان أهم هذه الأعذار نزاع قام بينه وبين عبد الله الجزار والى عكا ، لأن عدداً من الفلاحين المصريين هاجروا إلى عكا فراراً من أعمال السخرة ودفع الضريبة وهروباً من خدمة الجيش ولما طلب محمد على إرجاعهم أبى عليه الوالى .

وقد أعدت الحملة لتأديب الجزار غير أن محمد على كان يخفى وراء ذلك هدفاً أعظم . وتظاهر بالولاء للسلطان وفى ٢٩ أكتوبر عام ١٨٣١ سار جيش محمد على زاحفاً على سوريا . وذهب ابنه إبراهيم القائد العام لهذا الجيش بحراً . ولم يلق الجيش مقاومة فى طريقه حتى وقف على أبواب عكا . وكان يلقى ترحيباً كلما مر على مدينة .

حاصر إبراهيم باشا عكا من البر والبحر مدة استسلمت بعدها رغم محاولة الدولة العثمانية فك الحصار عنها بجيش لجب . وسقطت عكا فى ٢٧ مايس عام ١٨٣٢ . كان لسقوط عكا أثر كبير فى نفوس أبناء الشام فأقبلت القبائل والوفود فرحة مستبشرة بهذا الفتح وعرضوا أنفسهم لمساعدة الجيش المصرى وانضم الأمير بشير الشهابى إلى محمد على وساعد الجيش المصرى مساعدة فعالة . غضب السلطان على محمد على وأصدر إرادته السنية بعزله وعزل إبراهيم عن بلاد العرب . فاهتم محمد على للأمر

وعرض على السلطان خضوعه بعد فتح عكا ورغب فى وقف القتال على أن يوليه السلطان أمر الشام فأبى السلطان ذلك . لقد كانت هذه هى أمنية محمد على فلو ضم السلطان إليه بلاد الشام لاشتد ساعده وقوى أمره وصار من السهل عليه أن يستولى على البلاد العربية المجاورة . ولما أصر السلطان على إبائه تقدمت الجيوش المصرية تزحم أمامها جيوش السلطان فبلغ إبراهيم «أذنه» واستمر حتى بلغ «قونية» والتقى بجيش الخليفة الذى كان بقيادة محمد رشيد باشا فهزمه شر هزيمة واستولت جيوش إبراهيم على أكثر بلاد الأناضول وزاد الطين بلة استسلام الأسطول التركى إلى محمد على ، وهكذا بقيت الدولة بلا جيش وبلا أسطول . فلم ير السلطان بدا من المهادنة وعقدت بين الطرفين اتفاقية «كوتاهية» التى تقضى بمنح محمد على بلاد سوريا علاوة على مصر وتعيين ولده إبراهيم والياً على أدنه لقد أطلقت يد محمد على فى بلاد الشام . وتحققت الرغبة التى كان يتمناها إبراهيم . فبدأ يبث آراءه ويحث الناس على تكوين حكم عربى مستقل عن الخلافة ولعل هذا الصوت كان أول صوت من نوعه فى بلاد الشام بعد ذهاب الأمر من يد العرب فى العالم الإسلامى .

انصرف إبراهيم إلى تنظيم شئون الإدارة وكون جهازاً حكومياً عادلا وفتح المدارس ونشر الثقافة وسهل لجمعيات التبشير الآتية من الغرب فتح مدارسهم وممارسة أعمالهم . وظل يعلن على الملأ ضرورة تكوين دولة عربية فى هذه البقعة من الشرق الأدنى . ولكن مصالح الدول التى تتضارب فى هذه البلاد وقفت دون ذلك . وبقيت هذه الفكرة حلماً يتردد فى مخيلة إبراهيم وأبيه قضت عليه دسائس السلطان وانحراف إبراهيم باشا فى سياسته فى هذه البلاد وميله إلى الشدة فى ابتزاز المال ووضع الضريبة وتنفيذ التجنيد الإجبارى ونزع السلاح ، كل ذلك

آثار حفيظة أهل البلاد وثاروا ضده . وكان ذلك إيذاناً بعدم الرضا فطويت القلوب على الكراهية والحقد .

البعثات التبشيرية

بينما كانت بعوث محمد على مستمرة إلى بلاد الغرب واستقدام الأساتذة لنشر التعليم الصحيح فى البلاد لاينقطع وحركة ابن عبد الوهاب فى الجزيرة لاتزال قائمة والأزهر مفتح الأبواب يمد والى مصر بالمثقفين لإرسالهم إلى بلاد الغرب والجريدة الرسمية فى مصر تنشر على الناس نجد البعثات التبشيرية الآتية من الغرب تنشط فى أعمالها فى فتح المدارس وتثقيف الناشئة لإيجاد جيل جديد يفهم الدين بلغة البلاد ، وكان للتنافس الذى حدث بين مبشرى جمعيات البروتستان وجمعيات الكاثوليك أثر كبير فى انتشار المدارس ، وقد ساعد ابراهيم باشا على هذا الانتشار بما بذله لهذه الجمعيات من التسهيلات ، وقد كان إبراهيم نفسه فتح المدارس والكليات فى بلاد الشام على غرار بعض ما فعل أبوه فى مصر . وبذلك بدأت نهضة ثقافية باللغة العربية ، لغة أهل البلاد . وكان إبراهيم يرمى من وراء ذلك أن يرضع الناشئة مع أفاويق العلم أفاويق الوطنية والقومية .

بدأ البرتستان بترجمة الإنجيل إلى العربية واستعانوا على ذلك بالأديب المشهور بطرس البستانى ثم استعانوا بالشيخ إبراهيم اليازجى لتأليف كتب القواعد وآداب اللغة العربية لتوضع بيد الناشئة فى مدارسهم . الكاثوليكية وأقدم هذه المدارس وأهمها مدرسة عنتورة أنشئت عام ١٧٢٨ وأغلقت ثم أعيد فتحها عام ١٨٣٤ ، والكلية السورية أنشئت فى بيروت عام ١٨٦٦ وهى بروتستانية . وهناك مدارس أخرى انتشرت فى القرى والأرياف .

لقد أراد الغرب من وراء هذه الجمعيات التبشيرية ومدارسها أن يجد

له باباً يدخل منه إلى البلاد العربية كى يفرق بينها وبين السلطان كما كان يفعل فى البلقان فى إثارة الأقليات والقصد من وراء ذلك كله إضعاف شوكة الدولة العثمانية والتدخل فى أمورها ، وقد لا تخلو حوادث ١٨٦٠ فى دمشق من يد خفية .

ومهما يكن فإن هذه المدارس التبشيرية أوجدت جيلا جديداً من رجال الدين يتكلمون ويخطبون ويعظون بلسان عربى مبين وأوجدت طبقة ممتازة من الأدباء والشعراء يستمدون معانيهم وألفاظهم من ذخيرة اللغة العربية ، كانت المدارس الإسلامية وحدها تضطلع بدراسة القرآن تراث العربية ، فلما جاءت إرساليات البروتستان إلى بلاد الشام للتبشير بمذهبهم الذى من أسسه الأولى أن يتلى الإنجيل باللغات المفهومة وأمنت الكنيسة بدراسة اللغة العربية وآدابها لتحقيق ذلك صار من السهل جداً على أبناء البلد الواحد أن يتلاقى شعورهم فى صعيد واحد . وكان يمكن أن تكون الفائدة أتم لولا مطامع بعض الدول فإن فرنسا كانت تطمع فى الاستيلاء على سوريا ولبنان وكانت لاتنى تستغل هذه الجمعيات التبشيرية ومدارسها لتحقيق هذه المطامع وتسخرها لمآربها بناء على مانقوم به من المساعدات المادية والأدبية وكان طبيعياً أن تختلف الآراء حسب الأهواء والظروف الخاصة بكل فريق من أبناء البلاد .

حركت الدراسات العليا والمطابع والصحف والحركات التحريرية فى بلاد الغرب كوامن القومية فى نفوس الكتاب والشعراء والمفكرين وأثار ظهور اللغة العربية فى مصر وبلاد الشام والعراق تارة أخرى مادة للترجمة والتأليف احياء أمجاد الماضى والاستفادة منها وتقدم العلماء والكتاب والأدباء يبثون آراءهم ويهيئون البلاد لبعث جديد .

الأدباء والكتاب

زخر مستهل القرن التاسع عشر ومنتصفه بالعلماء والأدباء والساسة والمصلحون وملأت أصواتهم سمع العالم العربى فى استنهاض الهمم وبعث الرمم ، وكان مبعث ذلك هذه الموجة الدافقة من اليقظة التى عمت العالم أجمع وفتحت عيون العرب على حيوية الغرب ونشاطه وأطماعه ، وكانت بلاد الدولة العلية هدف هذه الأطماع وكان الصراع يدور حول أطرافها وأوساطها . تململ العالم العربى بعد جلاء الفرنسيين عن مصر وتفتحت الآفاق عن نشوء مصر الفتية فى نهضة علمية شاملة بعثت عدداً من أجلة العلماء والأدباء ، وكانت بعض المدارس الدينية فى بعض البلاد الإسلامية لا تزال فى خير يظهر فيها أجلة من العلماء فى غفلة من غفلات الزمن ، وهكذا أنجبت مصر رفاعة بك الطهطاوى ١٨٠١ — ١٨٧٣ وهو الذى يسمونه أبا النهضة المصرية نشأ فى أسرة فقيرة الحال غنية النسب ينمى إلى الحسن بن على ، درس فى الأزهر وعين مدرساً فيه وهو لم يبلغ الثانية والعشرين وقد عين واعظاً وإماماً فى جيش محمد على ، فلما أرسل محمد على بعوثه العلمية إلى باريس اختاره ليكون إماماً لهذه البعثة ، فأكب على الدرس شأنه شأن إخوانه ، فدرس اللغة والفلسفة وطالع كتب الأدب لأكابر الشعراء والأدباء . ولم يكتف بذلك فقد درس كتب المعادن والرياضيات وغير ذلك . ولما عاد إلى بلاده رأى أن ينقل ما يستطيع من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية فترجم وألف ومن جملة ما ترجم الدستور الفرنسى ، عاد إلى مصر بعد ست سنوات وتولى منصب الترجمة وتدريس اللغة الفرنسية فى مدرسة الطب ثم نقل إلى مدرسة المدفعية فترجم علوم الهندسة وفنون الحرب ، وترجم كتاب الجغرافيا لمؤلفه ملتيرون .

وعهدت إليه الحكومة ترجمة قانون نابليون فنقله إلى العربية وأخرجه مع رفاقه من مدرسة الألسن فى مجلدين وهو الذى اقترح إنشاء مدرسة الألسن وقد صار فيما بعد ناظراً عليها . وهكذا قدم هذا العالم لأمته ثروة من العلم وفى العراق كان من أبرز العلماء شهاب الدين محمود الألوسى ١٨٠٢ — ١٨٥٤

درس الفقه وعلوم العربية على أجلة العلماء فى عصره فبرع بها واشتغل بالتأليف والتدريس وهو لا يزال صغير السن وكانت مدرسة المرجانية ببغداد موضع عمله وإلقاء دروسه وقد تتلمذ عليه كثير وتخرج على يديه أجلة من العلماء ، ألف تفسيره المعروف بروح المعانى ويعتبر من أجل التفاسير ويقع فى تسع مجلدات جمع فيه صفوة ما جاء فى التفاسير الأخرى .

وجاء بعد محمود شكرى الألوسى الذى توفاه الله عام ١٩٢٣ ، وهو واضع بلوغ الأرب فى أحوال العرب وكان لمؤلفه هذا رنة إعجاب فى العالم الغربى والشرقى وصف فيه أحوال العرب الاجتماعية والأدبية ودحض جميع ما ألصقه الموالى والشعوبيون بالعرب مما ليس فيهم .

وفى لبنان ظهر ناصيف اليازجى ١٨٠٠ — ١٨٧١ ولع بالأدب ولم يكن فى متناوله ما يشبع رغبته من الكتب فأخذ يفتش عنها فى الأديرة حتى إذا وقع على مخطوط أسرع فى نقله أو حفظه عن ظهر قلب فتكونت فيه ملكة النثر والنظم وعرف بين الناس بأدبه وعلمه فلما علم به الأمير بشير الثانى استكتبه ونال بذلك حظوة عنده . واتصلت به جمعيات التبشير من البرتستان فكتب لهم الكتب المدرسية فى اللغة والأدب والمنطق ولا تزال بعض هذه الكتب تدرس فى المدارس المسيحية بلبنان إلى اليوم .

وظهر أيضاً الشيخ بطرس البستانى ١٨١٩ — ١٨٨٣ فألف وكتب ، واستعان به البرتستان على ترجمة الكتاب المقدس ، وكاد يتمه لولا أن عاجلته المنية فأتمه فان ديك من بعده وفى عام ١٨٦٣ أنشأ فى بيروت مدرسة عالية أسماها المدرسة الوطنية أسسها على الحرية الدينية ومبدأ الجامعة الوطنية العثمانية ، فأخذ يفد إليها الطلاب من سائر أنحاء البلاد ومن مصر والعراق وغيرها ، فرضيت عنه الدوله وأنعمت عليه بوسام عال مكافأة له على خدماته . ألف قاموسه المعروف بمحيط المحيط وفرغ منه ١٨٦٩ وأنشأ مجلة علمية أدبية سياسية سماها « الجنان » وقد بدأ بتأليف دائرة المعارف ولما أتم منها ستة مجلدات عاجلته المنية قبل أن يتم السابع فأتمه أولاده وذووه من بعده واستمروا فى عملهم حتى بلغت أحد عشر مجلدا .

وقد مر بنا فى الفصل السابق ما قام به جمال الدين الأفغانى فى أنحاء الشرق الأدنى وما قام به الشيخ محمد عبده والسيد عبد الرحمن الكواكبى فى هذه الحقبة من الزمن .

وصفوة القول كانت البلاد العربية تموج بمجموعة من أجلة العلماء والمصلحين أيقظوا فى كتاباتهم وخطبهم وأحاديثهم كوامن العزة فى النفوس ودفعوا الأمة إلى الحرية والاستقلال والطموح إلى الكمال وكان من نتاج ذلك شعور بالعمل المشترك فتألفت الجمعيات العلمية والأدبية فى بادىء الأمر ثم تطورت الحال إلى تأليف الأحزاب والجمعيات السياسية والنوادى التى تهدف فى أعمالها إلى الاصلاح وتغيير الأحوال إلى أحسن منها ويكاد تكون أول جمعية أسست هى الجمعية العلمية التى اقترح البستانى واليازجى على الأمريكان تأسيسها ولم تكن هذه إلا نتيجة يقتضيها العمل المشترك . وبرزت للوجود عام ١٨٤٧ باسم « جمعية الفنون والعلوم » وكان اليازجى والبستانى من بين أعضائها وكان جلهم من الأمريكان وقد تلتها للمزاحمة والمنافسة « الجمعية الشرقية » التى أسسها

اليسوعيون عام ١٨٥٠ وأعضاؤها على غرار أعضاء جمعية الفنون والعلوم شرقيون وغربيون وكلهم من المسيحيين . انحلت هاتان الجمعيتان فتكونت على أثر انحلالها « الجمعية العلمية السورية عام ١٨٥٧ وكانت تضم أعضاء من المسلمين والدروز والمسيحيين ، واجتماع هؤلاء الأعضاء فى جمعية واحدة دلالة واضحة على ظهور الوعى القومى ، وكان إبراهيم اليازجى أحد أعضائها والأمير محمد أرسلان الدرزى رئيسا لها .

وفى شهر ديسمبر من عام ١٩٠٤ تأسست فى باريس جمعية باسم رابطة الوطن العربى ، تديرها هيئة عليا وقد وجهت هذه الهيئة نداء إلى العرب القاطنين فى تركيا وفى عام ١٩٠٥ وجهت هذا النداء إلى العالم الإنسانى فى أوربا وأمريكا أبانت فيه مطالب العرب وقد صار هذا النداء فيما بعد أساساً للمناهج الأخرى فيما تأسس من الجمعيات[١] .

ظلت الأيدى الخفية تفعل فعلها فى إثارة القلاقل وتنبيه الأذهان إلى أعمال الدولة العثمانية ، وكانت قد أوفت على الشيخوخة من جراء النكبات التى أصابتها فى البلقان وفى البلاد العربية فقد أخذ الطامعون ينتقصونها من أطرافها ، وشرعت الحركات الاستقلالية فى المقاطعات التى تتكون منها عناصر هذه الامبراطورية تزداد قوة والدولة تزداد ضعفاً وأثقلت الدولة بالديون ، وكانت فرنسا لاتنى تحدث المشاكل وتعلن على رءوس الملأ أطماعها فى بلاد الشام وبريطانيا جاثمة على فم الخليج وباب المندب يهمها ضعف الدولة على أى حال من الأحوال لتستطيع أن تملى ما يفيدها فى حفظ طريق الهند . ويعزوا المصلحون هذا الضعف إلى استبداد السلطان واستئثاره بالحكم ولذلك تأسست من بين رعايا الدولة جميعها جمعيات سرية وعلنية تمخضت كلها عن

---

(١) welt des Islam b.d. 8 s. 99-101

تأليف جمعية هى : « الاتحاد والترقى » وكان أعضاؤها من بين جميع أجناس الإمبراطورية والعدد السائد فيها على الترتيب التالى: الأتراك ويشكلون الأكثرية ويليهم اليهود فى الكثرة ثم تأتى بعد ذلك الأجناس الأخرى ، وكانت هذه الجمعية ترمى إلى إصلاح المملكة عن طريق إعلان الدستور وتقليم أظافر السلطان ولما علم أعضاء هذه الجمعية بما يبيته الغرب لهم فى اقتسام إرث الرجل المريض أعلنوا الثورة وطالبوا عبد الحميد بإعلان الدستور فاضطر لذلك وأعلنه فى يوم ٢٤ تموز من عام ١٩٠٨ .

كانت حالة الدولة سيئة جدا إبان إعلان الدستور وكان العرب مشفقين على بقية بلادهم من الضياع لأن الدولة العثمانية أصبحت لا تدفع أذى ولا تزيل شرا ، فأخذوا يفكرون فى الأمر تفكيراً جدياً ووضعوا خطط الإصلاح التى يرمون من ورائها إلى الاحتفاظ بكيانهم ، فلما حدث الانقلاب الدستورى فرحوا به واستقبلوه بالبشر والحماسة وانضموا إلى الترك علماً منهم بأنه لم يبق فى الدولة اختلاف عنصرى بعد . كان إعلان الدستور إيذاناً بانطلاق الناس من قيود الاستبداد وإعلاناً بانبلاج نور الحرية فهب أقوام الامبراطورية يؤلفون الجمعيات ويفتحون النوادى ويعلنون ما كان فى أمرهم سراً . فقد كان للروم والأرمن جمعيات منظمة سرية جعلوها شرعية علنية وقام العرب فأسسوا جمعية « الإخاء العربى العثمانى » وفتحوا نادياً بهذا الاسم وكان من مبادئ هذه الجمعية الصداقة التركية العربية وقد تم افتتاحها رسمياً وحضره فريق من أعضاء جمعية الاتحاد والترقى وتهدف إلى تحسين أحوال العرب عامة وتشجيع التعليم وبث الألفة بين أقوام الدولة العثمانية وكان باب الانتساب إليها مفتوحاً أمام العرب جميعهم على اختلاف نحلهم ، كما قررت أن تنشئ لها فروعاً فى الأقاليم العربية جميعها . وأنشأت فعلا جريدة تبث فيها آراءها ومقاصدها .

لقد ظن العرب بالاتحاديين خيراً ووضعوا أيديهم بأيديهم ولكن مالبث الأمر قليلا حتى تغير وكان أبرز مظاهر هذا التغير ميدان الانتخابات البرلمانية فإن جمعية الاتحاد والترقى وجهتها وجهة تكفل لها الأكثرية وأن يرجح العنصر التركى على العناصر الباقية جميعها ، وبالرغم من تفوق العرب على الترك بالعدد فقد افتتح البرلمان فى شهر كانون الأول وضم فى أعضائه ١٥٠ نائباً تركيا و ٦٠ نائباً عربياً ، أما مجلس الشيوخ الذى كان يعين من قبل السلطان وكان عدده ٤٠ عيناً فلم يكن فيه إلا ثلاثة من العرب .

وما كانت هذه النتائج لترضى السلطان وهو الآمر الناهى وكان يتحين الفرص للخلاص من جمعية الاتحاد والترقى فدبر مؤامرة فى اليوم الثالث عشر من شهر إبريل أعلنت فيها حامية القسطنطينية العصيان ، وهاجمت دار « المبعوثان » فاقتحمتها وقتلت ضباطها ووزير العدل ونائباً عربياً هو الأمير محمد أرسلان مبعوث الشام . فلما سمع محمود شوكت باشا بذلك وهو عربى يتمتع برتبة عالية فى الجيش وكان حينذاك قائداً للجيش فى سالونيك ، تقدم نحو العاصمة وبعد قتال عنيف ومعارك سالت فيها الدماء دخلها ظافرا ، وبعد ثلاثة أيام أعلن خلع السلطان عبد الحميد ونصب مكانه أخوه محمد رشاد وعاد لجمعية الاتحاد والترقى نفوذها الأول .

بدأ سوء التفاهم يزداد بين العرب والاتحاديين من نتائج البرلمان ومن حلهم لجمعية الإخاء العربى العثمانى وشرع الاتحاديون يناهضون العرب فى إقصائهم عن الوظائف بحجة التنسيق وقد نسق عدد كبير منهم فى وزارتى الخارجية والداخلية ومنع قبول العرب ودعوتهم فى الاجتماعات ودخولهم فى الجمعيات الاتحادية أو حضورهم فى المذاكرات السياسية التى كانت الجمعية تجتمع لها مع انتزاع وزارة الأوقاف من

الوزير العربى وإعطائها إلى وزير تركى واستبدال المتصرفين والقضاة من العرب بآخرين من الترك ، ومحاربتهم اللغة العربية .

أعلن الاتحاديون نياتهم وبدءوا سياستهم التى تستند إلى مبدأ سيادة الترك على العناصر الأخرى ، وتتريكها جميعها ، وما دروا أن هذه المحاولة فاشلة ذلك لأن العرب يمثلون العنصر الأكبر فى الدولة ولأن اللغة العربية هى لغة القرآن ، لها أدبها ومقوماتها ولها كيانها الدينى واللغة التركية لغة ليس لها من الشأن ما للعربية ، فإذا نجحت هذه الفكرة فى تتريك عنصر من عناصر الأقليات فلن تنجح عند العرب ولذلك ما كادت تظهر نياتهم للوجود حتى دب الانشقاق فى الصفوف وانسحب جميع نواب العرب الذين كانوا معهم وانتموا إلى « حزب الحرية والائتلاف » الذى تأسس على قاعدة التآلف بين عناصر الامبراطورية جميعهم . لقد أخذ هذا الحزب يزاحم جمعية الاتحاد فحقت عليه وظلت تتربص به الدوائر حتى محته من الوجود قتلا وتهديداً .

تعاورت المصائب والكوارث على الدولة بعد إعلان الدستور ، فإن النمسا والمجر قد ضمت إليها البوسنة والهرسك فى أكتوبر عام ١٩٠٨ وفى الوقت نفسه انفصلت بلغاريا وفى عام ١٩١١ اعتدت إيطاليا على ليبيا وبذلك فقدت الدولة طرابلس الغرب وبنى غازى ، وفى عام ١٩١٢ اندلعت حرب البلقان وقد فقدت الدولة أثناء هذه السنوات جميع ممتلكاتها فى أوربا ماعدا تراقية الشرقية .

كذلك فقدت جزيرة كريت وجزر الدوديكان . وقد تبين للعرب أن تركيا قد ضعف كاهلها أن تحمل أمانة بلادها وبلاد العرب بعد أن عجزت عن حفظ الروملى الذى هو حصن الآستانة أمام البلقان

وفى عام ١٩٠٩ دعا ضباط العرب أهل الرأى والمشورة من أعضاء

جمعية الاتحاد والترقى للتفاهم وحسم هذا الخلاف الناشب بين أمتين يربطهما تاريخ ومصالح مشتركة فقبلوا الدعوة ولكنهم لم ينتهوا إلا إلى ماهو أسوأ . ولما لم يفد ذلك كله أخذ الشباب الوطنى يدعو إلى إيجاد نظام جديد يسمى « اللامركزية » فهو أدعى إلى العمران مع إفساح المجال لكل عنصر أن يدفع العوادى عن نفسه . ونشط العرب فى هذه الناحية لتأسيس النوادى والجمعيات والأحزاب ، ففى ١٩٠٩ تأسس المنتدى الأدبى أسسه عدد من نواب العرب والكتاب والطلاب وكان يهدف إلى غاية أدبية ، وقد ضمت إليه مكتبة ودار للضيافة وقاعة للمحاضرات ، وقد أقام هذا المنتدى عدة حفلات وطنية حماسية . وأخذ يبث الدعوة لهذه الحركة ، وقد أغلقته الدولة فى الحرب العالمية الأولى ، لقد كثر الأعضاء المنتمون إليه حتى بلغ مجموعهم الآلاف وأنشأ له فروعاً فى أنحاء البلاد . ومن ميزاته أنه ملتقى الوافدين العرب من أنحاء البلاد كافة .

وفى عام ١٩١٢ تأسس حزب « اللامركزية الإدارية العثمانى » فى القاهرة وهكذا أدت القاهرة واجبها بعد أن كانت مركزاً للقضاء على حركة ابن عبد الوهاب ومن ثم القضاء على فكرة الخلافة العربية . وقد تأسست له فروع فى سوريا والعراق وكان يهدف إلى إقناع الدولة العلية بضرورة حكم اللامركزية وتوجيه الرأى العام العربى إلى المطالبة بذلك ، وقد ظهر الحزب لأول مرة جريئاً ووقف وجهاً لوجه أمام الاتحاديين ، وقد جاء فى المادة الثالثة من منهاجه : ليس هذا الحزب خفيا وليس فيه مايعد من الأسرار فهو ينشر مقصده المبنى على المطالبة باللامركزية الواسعة جهراً وعلانية دون الخشية من أحد لاعتقاده يقينا أن الدولة لاتبقى فى العالم السياسى إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية .

وفى المادة الرابعة منه : إن الدخول فيه مباح لكل عثمانى بلغ العشرين من العمر على شرط أن يكون أولا من المتمتعين بجميع الحقوق

المدنية ، ثانياً : غير محكوم عليه بحكم مخل بالشرف ، ثالثاً : غير مشتهر بسوء السيرة ، رابعاً : أن يقبل القواعد المبينة فى برنامج الحزب .

وفى عام ١٩١٣ تأسست الجمعية الإصلاحية فى بيروت وأقرت منهاجها فى جلستها الثالثة المنعقدة فى دار المجلس البلدى بإذن من الحكومة العثمانية يوم الجمعة الموافق ٣١ كانون الثانى من عام ١٩١٣ . وقد جاء فى مستهل هذا المنهاج : الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية . ويتألف المنهاج من خمس عشرة مادة . جاء فى المادة السابعة منه : وتعين الحكومة المركزية مستشارين من الأجانب على شرط معرفتهم إحدى اللغات الثلاث العربية أو التركية أو الفرنسية للدوائر الآتية فى مركز الولاية وهى الجندرمة والمالية (وتلحق بها غرفة التجارة) والبوسطة والتلغراف والجمرك .

وجاء فى المادة الرابعة عشرة : إن اللغة العربية تعتبر اللغة الرسمية فى جميع المعاملات داخل الولاية وتعتبر أيضاً لغة رسمية كاللغة التركية فى مجلس النواب والأعيان .

وفى المادة الخامسة عشرة : تخفض الخدمة العسكرية إلى سنتين وتقضى الخدمة أيام السلم فى الولاية . وتنزل قيمة البدل النقدى للنظامية إلى ثلاثين ليرة عثمانية وللرديف والاحتياط إلى عشرين ليرة .

لقد كانت المادة السابعة شديدة الوقع على رجال الدولة وذلك لما فيها من إفساح المجال لتدخل الأجانب فى شئون الدولة الداخلية ، أما ما جاء فى المادة الرابعة عشرة فهو نقطة حساسة طالما ارتجفت من ذكرها فرائص الاتحاديين ، لأنهم لا يريدون سماع كلمة اللغة العربية ، وهم الذين يعتقدون أنهم يحكمون البلاد العربية بالقوة والإدارة والأمة العربية تحكمهم بالثقافة ، لأن اللغة العربية هى لغة القرآن . أغضب

ما جاء فى هذا المنهاج رءوس الاتحاديين ، فأسرعت الحكومة إلى غلق الجمعية ، فأضربت المدن احتجاجاً على ذلك .

وفى البصرة تألفت جمعية البصرة الإصلاحية ، وهى لا تختلف فى خطتها وأهدافها عن أية جمعية عربية أخرى تأسست لمثل هذه الغايات فى تلك الأيام .

كان لمطاردة الاتحاديين أحرار العرب ومقاومتهم لمناهجهم الإصلاحية أثر كبير فى توسيع شقة الخلاف بين الأمتين وإلى اتجاه شباب العرب فى سرية الأعمال وعلى ذلك تشكلت فى تلك الفترة جمعيتان سريتان : الجمعية القحطانية وتمتاز بجرأة مؤسسيها وإقدامهم ووضوح منهاجهم واعترافهم بالواقع فقد أوضحوا فى منهاجهم بأن تكون الدولة العلية ذات تاج مزدوج ، أى أن السلطان يضع على رأسه فى الآستانة تاج المملكة العربية إضافة إلى تاجه التركى ، وتتكون الدولة العربية من جميع المقاطعات العربية ، ولها مجلس نيابى خاص وإدارة محلية على غرار امبراطورية النمسا والمجر . لقد أدرك رجال هذه الجمعية أن الدعوة علناً إلى تحقيق هذا المنهج أمر مستحيل ، لأن ذلك مما ترتعد له فرائص غلاة الأتراك . فاتخذت سبيل السرية لها سبيلا ووضعت لأعضائها كلمة سر يتفاهمون بها كما أنها كانت تختار الأعضاء بدقة وحذر وكان زعيم هذه الجماعة الضابط المعروف عزيز على المصرى ، وكانت تسعى لكسب ضباط العرب فى الجيش التركى . كان زمام هذه الجمعية قد أفلت من يد مؤسسيها ، لأن أحد الأعضاء من الذين كانوا لا يؤمنون بذلك أفشى سر الجمعية فخاف الأعضاء على أنفسهم فأهملوا الجمعية وتركوها تتلاشى من الوجود : ظلت هذه الفكرة تتردد فى ذهن زعيمها عزيز على حتى صمم على تأليف جمعية أخرى على غرارها وبذلك تم تشكيل جمعية العهد واقتصر فى أعضائها على الضباط العرب فقط ولما كان عدد العراقيين فى الجيش التركى كبيراً

صارت كثرة الأعضاء لهم فى هذه الجمعية وأسسوا لها فرعين فى الموصل وبغداد . كانت هذه الجمعية شديدة فى سريتها شدة جمعية « الفتاة العربية » وقد بذلت كلتا الجمعيتين جهوداً جبارة فى سبيل استقلال البلاد العربية ولم تدر إحداهما بالأخرى وقد تلاقتا فى دمشق عام ١٩١٥ ووحدتا جهودهما لإعداد الثورة .

أما الجمعية الثانية فهى جمعية « العربية الفتاة » أسسها فى باريس عام ١٩١١ فريق من طلاب العرب الذين كانوا يدرسون هناك وكانوا كلهم من المسلمين وقد أخذ عملهم فى هذه الجمعية سبيل الجد والكتمان والحذر فكانوا لا يضمون إليهم أحداً إلا بعد أن يمر بتجربة طويلة يتبينون فيها صدق عهده . وكان منهاج هذه الجمعية تخليص العرب من الحكم التركى واستقلال البلاد العربية عن أى سلطة أجنبية . ولما أتموا دراستهم وعادوا إلى بلادهم انتقل مركزها إلى بيروت وقد لعبت دوراً مهماً فى الحركة العربية وقد نمت هذه الجمعية نمواً سريعاً وبلغ مجموع أعضائها مائتين . وقد بلغ من حرصهم على العهد وكتمان السر أن حاول أحدهم الانتحار وفضل الثانى المشنقة لشدة ماعذب جسمهما فى سبيل الاعتراف .

لقد كان هدف هذه الجمعيات التى تأسست يرمى إلى المطالب الآتية : (وهذه المطالب تختلف قوة وضعفاً حسب طبيعة الجمعية وطبيعة أعضائها)

١ — الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية .

٢ — اشتراك أكبر عدد من العرب فى تدوير شئون المملكة .

٣ — تسهيل قانون التجنيد الإجبارى « أى إبقاء الجنود العربية فى بلادهم أثناء السلم وتخفيض البدل النقدى » .

٤ — تحقيق اللامركزية .

وكانت هناك آراء مختلفة فى توضيح العلاقة بين الدولة العثمانية وبين رعاياها من العرب . فقد ساد رأى فى إيجاد خلافة عربية تقوم مقام

الخلافة التركية ، وحملة هذا الرأى العرب المسلمون المثقفون ثقافة إسلامية ويمثلهم السيد عبد الرحمن الكواكبى .

ورأى يقول بإبقاء الخلافة فى آل عثمان ويرمى إلى وحدة إسلامية شاملة ويمثلهم السيد جمال الدين الأفغانى .

ورأى متطرف يرمى إلى استقلال البلاد العربية وتخليصها من حكم الأتراك ومن أى سلطة أجنبية ورأى يقول بإبقاء البلاد العربية مرتبطة بالدولة العلية بنظام اللامركزية .

وهناك رأى متطرف آخر لعبت فيه الدسائس الأجنبية وهو القائل بوضع البلاد العربية تحت حماية دولة أجنبية وقد مهدت لهذا الرأى دولتا فرنسا وبريطانيا[1] .

المؤتمر العربى الأول

فى ٤ نيسان من عام ١٩١٣ وجه شباب جمعية « الفتاة العربية » كتاباً إلى اللجنة العليا لحزب اللامركزية فى القاهرة وإلى الجمعيات الأخرى العربية يدعونهم فيه إلى حضور مؤتمر غايته البحث فى التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن من الطوارئ وإصلاح أمور البلاد على أساس اللامركزية ، وأن تدور أبحاث المؤتمر حول الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال وحقوق العرب فى المملكة العثمانية وضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية والمهاجرة من سوريا وإليها .

وفى ١٤ نيسان أجابت اللجنة العليا لحزب اللامركزية بالقبول .

فحضر مندوبون عنها وعن الجمعيات الأخرى ومندوبون عن سوريا والعراق والجاليات العربية القاطنة فى الولايات المتحدة وكان عدد الأعضاء الرسميين ٢٤ عضواً . وحضر عدد كبير من المستمعين العرب وفى اليوم

---

(١) E. TOPF : S. 10.

الأخير فتحت أبواب المؤتمر لجميع الزائرين أما لماذا عقد المؤتمر فى باريس فقد أوضحه السيد عبد الحميد الزهراوى بقوله : إن حوادث بيروت الأخيرة فى اضطهاد الجمعية الإصلاحية وسجن فريق من أعضائها برهنت لنا على قدر الحرية التى يمكن أن يتمتع بها مؤتمر يعقد فى سوريا وقد رأينا من جهة أخرى أن نسمع مطالبنا ونفهم رأينا أوربا التى تزداد مصالحها أهمية فى البلاد العثمانية يوماً بعد يوم ، وفضلنا باريس على غيرها من عواصم أوربا لأن الجالية العربية فيها أكثر عدداً منها فى سائر العواصم وانعقد المؤتمر فى القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سن جرمان فى باريس يوم الأربعاء ١٨ حزيران عام ١٩١٣ ودام إلى اليوم الثالث والعشرين منه . وكانت مناقشاته فى غاية من الصراحة والجرأة وهو فى مقرراته لم يخرج على مبادئ حزب اللامركزية . وهذه أهم مقرراته :

١ — من المهم أن يكون مضموناً للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا فى الإدارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا .

٢ — يجب اعتبار اللغة العربية فى مجلس النواب العثمانى .

٣ — أن تكون اللغة العربية رسمية فى البلاد العربية .

٤ — تكون الخدمة العسكرية محلية فى الولايات العربية إلا فى الظروف التى تدعو إلى الاستثناء الأقصى .

٥ — يجب أن تنشأ فى كل ولاية عربية إدارة لامركزية تنظر فى حاجاتها وعاداتها . وهذا أهم ما جاء فى هذا المؤتمر .

وأضعف ما جاء فيه حول اللائحة التى قدمتها ولاية بيروت التى تقوم على مبدأين أساسيين ، أحدهما توسيع سلطة المجالس العمومية وثانيهما تعيين مستشارين أجانب . وفى هذا المبدأ الأخير يتضح مبلغ تلاعب فرنسا فى الأمر .

واختتمت القرارات بملحق جاء فيه : ستكون هذه القرارات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة أى مرشح فى الانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه .

ما كان المؤتمر شديداً فى مطالبه وما كان المؤتمرون يريدون الانفصال عن جسم المملكة العثمانية وجل ما كانوا يريدونه إصلاح شامل يتناول الدولة العليا وفى ضمنها البلاد العربية التى ستظل مخلصة للسلطان فقد جاء فى خطاب عبد الحميد الزهراوى عند الافتتاح « إن العرب كانوا قد ألفوا الترك وهؤلاء قد ألفوا العرب وامتزج الفريقان امتزاجاً عظيما مضى عليه أكثر من عشرة قرون ولكن لما مزجت بينهم السياسة فرقت بينهم السياسة أيضاً ولم يبق من ذلك الامتزاج القديم إلا رابطة بين بعض العرب وبعض الترك وهذه الرابطة لا تزال تعد ثمينة عند الترك العثمانيين والعرب العثمانيين معا ، ولكنها مع عزتها فى نفوس الفريقين قد أصبحت مهددة بالسياسة أكثر مما كانت من قبل ومعلوم أن السياسة فى هذه المملكة بيد الترك ، ولذلك تعرفها أوربا بأنها حكومة الترك ، فلما رأى العرب ما وصلت إليه هذه المملكة بتلك السياسة التى مضى عليها العمل حتى الآن وكانوا حريصين على البقية الباقية من تلك الرابطة تنبهوا إلى واجب عظيم كان الترك والعرب جميعا غير مهتمين به كما ينبغى ، وهو اشتراك الفريقين بسياسة البلاد ، فإنه قد تبين واضحا أنه لا العرب انتفعوا ببراءتهم من ذنب إضاعة البـــلاد ، ولا الترك انتفعوا بتحملهم تبعة ذلك العبء الثقيل ، وبديهى أن هذا الاشتراك لا ينافى الإخاء بل الذى ينافى هو عدم الاشتراك » .

وجاء فى خطاب اسكندر عمون : « توهم بعض أنصار النظام المركزى من إخواننا الأتراك أن الغرض من النهضة العربية الانفصال عن الدولة وهو أمر بعيد عن الصحة ، فإن الأمة العربية لا تريد إلا استبدال شكل

الحكم الفاسد (الذى كاد يودى بالدولة) بالحكم الذى يرجى منه وحده الصلاح والنجاح لنا ولهم وهو الحكم على قاعدة اللامركزية . ولو كانت الهيئة الحاكمة اليوم من صميم قريش لكان موقفنا معها نفس موقفنا هذا .

أفزع المؤتمر جماعة الاتحاديين ورموا فيه خيانة كبرى وجرأة من العرب ، فحاولوا بطرق شتى إحباطه ، فطلبوا من فرنسا عدم السماح بعقده فى باريس ، وعبئوا الجرائد والمجلات ورجال الدين وبعض الوجهاء من البلاد العربية لاستنكاره واحتساب القائمين بأمره من الخارجين على الخلافة والسلطان . فباءت محاولاتهم بالفشل ولم يروا بدآ من مواجهة الأمر الواقع فأرسلوا سكرتير جمعية الاتحاد والترقى إلى باريس للاتفاق مع المؤتمرين الذين كان مؤتمرهم يمثل الأحزاب العربية والجمعيات فاتفق معهم على أمور لم تنفذ منها الدولة إلا اليسير مما دل على أن الإيفاد كان لعبة أراد الاتحاديون أن يكسبوا الوقت من ورائها ويماطلوا فى الأمر ثم لايجيبون رغبة . لقد صدق العرب كلام موفد الاتحاديين وأرسلوا ثلاثة أعضاء منهم لتنفيذ الاتفاقية . واستقبل هؤلاء الأعضاء فى الاستانة استقبالا منقطع النظير ورحب الفريقان من عقلاء الأتراك والعرب بهذه الظاهرة التى تؤدى إلى الإخاء والوفاق ، ثم تمخض ذلك كله عن التصريح الآتى من قبل الحكومة الاتحادية :

١ — أن يعهد فى إدارة الأوقاف الموقوفة على عمل الخير المحلى بحسب شروط الوقف إلى مجالس الجماعات فى الولايات وذلك بموجب قانون جديد ينشر قريباً .

٢ — أن تكون الخدمة العسكرية فى زمن السلم فى دائرة التفتيش إلا إذا رأت الحكومة لسبب ما حشد قسم من الجنود فى جهة من الجهات فترسل العسكر على الطريقة النسبية إلى الولايات البعيدة كاليمن والحجاز وعسير ونجد .

٣ — أن يكون التدريس باللغة العربية فى جميع مدارس الولايات التى تتكلم أكثرية سكانها هذه اللغة وذلك لتوفير أسباب المدنيه التى تحتاج إليها فى الحال والاستقبال .

واقتصر على ذلك فى المدارس الرشدية والابتدائية أما فى المدارس الإعدادية فيجب أن يستمر التدريس باللغة التركية . وقد تجاهل هذا القرار الرسمى من الدولة جميع ما بقى فى قرارات مؤتمر باريس ولم يشر إليه . فكان صدمة قوية دهش لها العرب المشتغلون بالقضية العربية والواقفين على بواطن الأمور وكان خطوة موفقة عند البعض الآخر الذين كانوا يظنون بالاتحاديين خيراً ، فقد أقنعهم الاتحاديون بأن الدولة سائرة على تنفيذ خطتها فصلا فصلا ، إذ لم تتمكن من نشرها مرة واحدة فى الصحف لأن ذلك يثير بعض العناصر الأخرى فى الدولة للمطالبة وتفتح أبواب لا مجال لسدها . وما زال الاتحاديون يفتلون بين الذروة والغارب حتى استطاعوا أن يكسبوا الوقت ويهيئوا أنفسهم لملاقاة العرب. فقد أبعدوا الفرق العربية وأبعدوا ما يقرب من أربعمائة ضابط عربى من الأستانة إلى قلب الأناضول وتراقية وشبه جزيرة غليبولى وعلموا أن الجو خلا لهم . وبذلك نام مشروع قرارات مؤتمر باريس نومة أبدية .

القبض على عزيز على المصرى ونتائجه

وجد الاتحاديون فى هذا الضابط الجرىء قوة هائلة فأرادوا القضاء عليها والتخلص منها وظنوا أن الجو قد صفا لهم بإبعاد الضباط العرب عن الأستانة فدبروا له مكيدة ، وبينما كان خارجاً من الفندق تقدم إليه ثلاثة من رجال البوليس الملكى ودعوه إلى مركز البوليس ، فلما ذاع الخبر بين الناس وعلموا بالقبض عليه قام إخوانه من العرب وقعدوا لهذا الأمر وتوجهوا إلى مركز البوليس يستفسرون فكان جواب المأمور

أنه لم يسجن وإنما طلب منه الإجابة على أمور معينة وسوف يطلق سراحه فى الحال . ولما لم يتحقق ذلك قصد أحد ضباط العرب إلى الزهراوى وقال له أبلغ الحكومة التركية : « إن دماءنا نحن العرب يجب أن تحفظ للدفاع عن الوطن فلا تضطرنا إلى إراقتها فى سبيل الأفراد » .

لم تجد محاولات العرب نفعاً وقدم عزيز على بتهمة الخيانة لمناقضة أفكاره وآرائه لمصلحة الدولة العثمانية : ذلك أنه سعى لإنشاء دولة عربية مستقلة عن الدولة فى ليبيا ، وأنه أخذ رشوة من الإيطاليين مقابل تسليم البلاد إليهم ، وأنه عدو لرجال الاتحاد وما إلى ذلك من التهم التى كان عزيز على بعيداً عنها . لقد عرف عزيز بقوة الشكيمة والرجولة تخرج من مدرسة الأركان بتفوق وعين فى هيئة أركان حرب الجيش الثالث فى مقدونيا وانتسب إلى جمعية الاتحاد والترقى واشترك بالزحف على العاصمة فى ثورة ١٩٠٨ ولما أدرك أن سياسة الاتحاديين ترمى إلى مقاومة الحركة العربية نفض يده منها . وأسس هو وزميله سليم الجزائرى الجمعية القحطانية ، ثم جمعية العهد اللتين مر بنا ذكرهما . ولما نشب الخلاف بين الدولة واليمن أرسل عزيز على إلى إمام اليمن ونجح فى إقناعه بتسوية الخلاف بينه وبين الباب العالى . وقد أحرز انتصار باهراً فى ليبيا على الإيطاليين بالرغم من قلة ذات اليد وقلة العدة وكانت معركة ١٦ تموز التى انتصر فيها على الطليان من أكبر المعارك من الوجهة الحربية ووصفتها بعض صحف الغرب أنها تشبه معركة « كان » التى انتصر فيها هنيبال على الرومان . شاع فى الأوساط أن عزيز على قد حكم عليه بالإعدام بعد هذه الاتهامات والمحاكمة الخيالية ثم تأكد ذلك فقامت دنيا العرب وقعدت لهذا الحادث الجلل وتواردت الاحتجاجات من جميع أنحاء البلاد العربية وشكلت لجنة برياسة شيخ الأزهر للدفاع عن هذا الخطب وذهبت وفود عديدة

إلى اللورد كتشنر فى القاهرة . وتظافرت الجهود من جميع الجهات حتى خفف حكم الإعدام إلى الحبس الشديد والأعمال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما . كانت نتيجة هذا العمل أن تحركت مشاعر البلاد العربية وتقاربت آراؤهم فى دفع الأخطار واستقر الرأى على المضى فى الكفاح إلى النهاية فقد كانت قضية عزيز المصرى قبساً أثار شعلة فى النفوس ظلت تلتهب حتى اندلع لهب الثورة العربية .

العرب والأتراك عند اندلاع لهيب الحرب العالمية

رضى العرب بهذا القليل الذى صدرت به الإرادة أثر الاتفاق الذى بعثه مؤتمر باريس واقتنعوا بوعود الاتحاديين ومدوا يد المعاونة إلى إخوانهم الأتراك فى ظلال الهلال العثمانى وبذلوا جهوداً جبارة قبل المؤتمر وبعده لإيجاد الطمأنينة والسكينة فى قلوب العرب فى كل مكان ، فقد استطاع عزيز على المصرى القائد المعروف أن يقنع الإمام يحيى بتسوية كل خلاف بينه وبين الدولة ، واستطاع السيد طالب النقيب رئيس جمعية الإصلاح فى البصرة أن يوفق بين رغبات الباب العالى وآل سعود فى نجد . كما كان الإدريسى فى العسير مستعداً لإجابة أى رغبة يريدها السلطان . أما فى العراق وسوريا فقد كانت الحركة والسكينة منوطتين بتوجيه الأحزاب السياسية والجمعيات وجل أعضائها موجودون فى الآستانة على صلة تامة بالدولة وبرجال الاتحاد وقد رضوا مبدئياً بهذه المنحة من الإصلاحات فى البلاد العربية .

وفى الحجاز كان الهدوء شاملا وسلطان الخليفة مستقراً وكاد يكون مطلقاً لولا وجود الشريف حسين بن على حينذاك الذى أعاد لهذا المنصب مقامه الرفيع ، أنه بسط نفوذه على جميع القبائل المجاورة وتعداه إلى أبعد من ذلك ولما قويت شوكة الاتحاديين أرادوا أن يسلبوا الحجاز ميزاته

فأعلنوا أنه يجب خضوع الحجاز لنظام المملكة المركزى وأرسلوا إليه والياً قوى الشكيمة فنفر شريف مكة من هذا التصرف واضطر الاتحاديون أن يأمروا الوالى بمصانعة الشريف .

وفى كتاب المرحوم عبد الكريم الخليل إلى أحد أصدقائه بتاريخ ٦ أغسطس عام ١٩١٤ دليل واضح على نية حزب اللامركزية . ومما جاء فيه :

« أيها العزيز : أنا على وشك السفر إلى سوريا لأن التدابير التى اضطرت حكومتنا السنية إلى اتخاذها درءاً لخطر الحرب العظمى تقضى على كل عثمانى مخلص لدولته وأمته أن يبذل جهده فى سبيل تنفيذها على أحسن مايرام ، وستكون مهمتى فى سوريا جمع كلمة الأمة على شد أزر الحكومة والسعى لمنع كل مايحتمل وقوعه من أسباب النفور بين العناصر العثمانية وقد وعدتنى الحكومة بأن تشد أزرى فى هذه المهة وتجيبنى إلى كل المطالب العادلة التى أطلبها منها باسم الأمة العربية أو باسم الأفراد من أبنائها ، فلنكن كلنا يداً واحدة لإنقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوربية وإظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها لنتمكن من منع اعتداء الدول الغربية علينا والخروج من هذه الأزمة الحرجة أرفع شأنا وأعلى مقاما » .

وجاء فيما كتب المرحوم سليم الجزائرى إلى أحد أصدقائه السياسيين فى ١٥ يناير عام ١٩١٤ :

عزيزى لقد أخلصنا للاتحاديين فلا مجال للشك فى إخلاصهم لنا ، نعم إن الاتفاق الذى أبرموه مع الزهراوى وعبد الكريم لايسعدنا وليس فيه كل مانحتاج إليه . . . ثم قال إن الحالة السياسية حرجة جداً أيها العزيز فبقدر مايسىء الاتحاديون إلينا يجب أن نحسن إليهم حرصاً على كيان هذه الدولة المنكودة الحظ » .

وكتب المرحوم مختار بيهم إلى أحد أصدقائه فى مصر فى ٢٦ أكتوبر عام ١٩١٤ قبل دخول الدولة بأيام معدودات ، أخى العزيز :

يخيل إلىّ أن الحرب واقعة لامحالة بين الدولة العلية ودول الحلفاء ، والأمل عظيم جداً بأن تكون حرباً قومية ظافرة تعوض الدولة من الخسارة التى منيت بها فى السنوات الأخيرة وترفع شأن العثمانيين فى نظر العالم ، وقد ألغينا أحزابنا السياسية وتناسينا اختلافاتنا الداخلية لأن المصلحة المشتركة تقضى بذلك وسوف يرى إخواننا الترك . ولاسيما الاتحاديون من أعمالنا فى هذه الحرب مايظهر لهم إخلاصنا للعرش العثمانى وتفانينا فى خدمة الوطن المشترك » .

كانت موجة القومية التى عمت أنحاء أوربا قد طفت على الشرق فجرفت الأقوام التى كانت تتألف منها الامبراطورية العثمانية ، ومن العجيب أن تصل هذه الروح ذروتها عند غلاة الاتحاديين الأتراك ، لقد اعتنقوا هذه الفكرة عن إيمان منقطع النظير ، وصولجان الحكم فى أيديهم والدولة دولتهم وهم يرون بعيونهم كيف فرت أقوام البلقان بالقوة والشدة من بين أيديهم ولم يبق معهم فى القوة والأخوة إلا الأمة العربية التى كانت تجتمع معهم فى أمجاد التاريخ الإسلامى ووشيجة العقيدة والتى كانت تؤمن بإطاعة الخليفة ، خليفة المسلمين . وقد كان يكون من المنطق الواضح أن تتضح هذه الحقيقة عند الاتحاديين بيد أنهم تركوها ولم يستغلوها ، وأخذوا يعملون على تحطيمها ، وقد لعبت اليهودية العالمية وأوربا المنتظرة إرث الرجل المريض الراقد على ضفاف البسفور دوراً هائلا فى إذكاء الحقد بين الأمتين فإن الأتراك كانوا حكام الامبراطورية يعتقدون أن السلطة حق من حقوقهم وأن مايقدمونه للعرب فى مشاركتهم ماهو إلا منحة ، ولذلك يغيظهم كل مايطلبه العرب من حق ، أما العرب فإنهم يعتقدون أن الدولة دولة العقيدة الإسلامية التى

تشترك فيها الأمتان وتدافعان عنها ، وأن أوربا الثائرة على الرجل المريض واليهودية العالمية الساخطة لم تكيدا كيدهما إلا من أجل تحطيم العقيدة وإضعاف هذه القوة النابتة فى الشرق والحارسة على طرق المواصلات بين الغرب والشرق المالكة لبقاع خصبة وأسواق عالمية ثرية .

وأن هذه الخصوبة وهذه الستراتيجية ماهى إلا فى بلاد العرب ، فمن حق العرب أن يشتركوا اشتراكا فعلياً فى الحكم والدفاع عن بلادهم خاصة بعدما ظهر لهم من ضعف الدولة فى تنظيم شئونها . هذه كانت نظرية العرب وعلى هذه الأسس تقدموا فى مطاليبهم .

ملأت القومية رءوس الاتحاديين فكبر عليهم أن يجدوا لهم منافساً فى الدولة فوضعوا خططهم لتتريك العرب وأنشئوا جمعية « ترك أوجاغى » وهدفوا من وراء ذلك إلى بث روح القومية فى أبناء الترك وإرجاعهم إلى أصولهم الأولى حتى ولو إلى الوثنية الطورانية ومن ثم التخلص من العقيدة الإسلامية ومحوها وإدماج العناصر التى تتكون منها الإمبراطورية فى هذه الطورانية المنتظرة وجعلوا لهذه الجمعية وظائف مقسمة على لجانها الأربع وتنحصر فى العناية بالآداب التركية والرجوع إلى أصولها مع الخلاص من دخيل اللغة العربية وغيرها من اللغات وتأليف الكتب القومية بهذه اللغة الجديدة ، ومقاومة كل كاتب تركى لا يرى هذا الرأى ، والعمل على نشر هذه الفكرة بالتأليف وتدريس الناشئة التأريخ الطورانى وإفهامهم أن الشعب التركى أعظم شعوب العالم اختارته القدرة الآلهية لسيادة الأمم فيجب أن تسود قوميته وتمحى القوميات الأخرى وتدمج فيه ولتحقيق ذلك يجب أن تؤلف كتب الفرور القومى وتنشر بين الشعوب التركية فى أنحاء العالم أينما وجدوا وربطهم جميعاً بعجلة الاتحاديين وأن تعنى هذه الجمعية بتربية الناشئة وتقوية أجسامهم لإيجاد جيل جديد صحيح الجسم والعقل . وأسسوا لهذه الجمعية النوادى وفرعوا

لها الفروع وأمدوها بالمال لتحفى بوضع كتب التأريخ والتراجم عن أسلافهم الأول أمثال هولاكو وجنكيز خان وتيمورلنك وأوغوز وبدءوا فى تنفيذ ذلك بأن غير الغلاة منهم أسماءهم العربية وتسموا بأسماء طورانية منتزعة من التأريخ القديم وحرموا على غير الترك دخولها . وزادوا على ذلك بأن أدخلوا هذا التأريخ فى المدارس العالية . فكانت هذه الحركة حركة استفزاز لبقية الشعوب والعناصر التى يظللها العلم العثمانى وخاصة الأمة العربية التى تكون الأكثرية العظمى فى هذه الدولة فقد كان الهجوم موجهاً ضد تأريخ الأمة الإسلامية وضد العقيدة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم . ما صير العرب على هذا التحدى بل أعلنوا سخطهم وشدوا أزر بعضهم بعضاً . وترابطت الجمعيات وعقدت العزم على إصلاح الحال فى أى وسيلة من الوسائل فإن بقاء الأمور معلقة مما يؤدى إلى هلاك الدولة التى يتكون منها العنصران الكبيران العربى والتركى . وكانت الحرب العظمى الأولى حداً فاصلا بين هذا الاصطراع .

أعلنت الحرب ولم تكن الدولة العلية داخلة فيها وكان يكون من الخير لها أن تبقى محايدة وتشد أزر العرب وتتفاهم معهم لتستفيد من غفلة أمم الغرب فى حروبها الطاحنة فتقوى نفسها وتعيد شبابها وتملى إرادتها على الأمم . ولكن مطامع الاتحاديين وطيشهم أجبرا الدولة على خوض معارك هذه الحرب الضروس فلما أعلنت تركيا الحرب فى جانب الألمان وقف العرب وقفتهم المعروفة ونسوا جميع أخطاء الاتحاديين ووضعوا أيديهم بأيديهم فلانت شدة الاتحاديين ورءوا أنفسهم فى حاجة إلى عون العرب فتقربوا منهم واستدلوا على الماضى القريب ستاراً وعينوا للجيوش العربية المرابطة فى سوريا قائداً عربياً وجعلوا له أعواناً من ضباط الجيوش التى كان يقودها الضباط العرب وعاملوا السوريين

والعراقيين معاملة حسنة تخاض هؤلاء القواد الميادين بشجاعة وإخلاص وجند شباب العرب فاستشهدوا دفاعاً عن الوطن وحماية العقيدة وأبلوا بلاء حسناً وألفوا جمعياتهم وأحزابهم السياسية وساهمت الأمة العربية بحضرها وريفها فى تموين الجيوش فى الميادين حتى قطع الناس لقمة العيش من أفواههم وسلموها للدولة طوعاً أو كرهاً فتولد عن ذلك غلاء فاحش واحتكار منكر بعث الجوع والهلاك وهام الناس على وجوههم يتخطفهم الموت من كل مكان وكان أشد هذا البلاء منصباً على البلاد السورية . هكذا مشت الحال فى بدء الحرب ولكن الاتحاديين لم يتركوها تسير كما هى بل عادو سيرتهم الأولى وأخذوا يسيئون الظن بالعرب وكان أول ما فعلوه أن نقلوا القائد العربى الفريق زكى باشا الحلبى الذى كان يقود الجيوش المرابطة فى سوريا وعينوه فى منصب آخر بعيد عن ميادين القتال وأحلوا مكانه القائد التركى الاتحادى المعروف جمال باشا السفاح الذى كان وزيراً للحربية فى الوزارة التركية وقد انتخب قائداً على الجيوش المرابطة فى سوريا ليقود الحملة المنتظرة يفتح بها مصر . وصل جمال باشا إلى سوريا بعد سبعة أشهر من إعلان الحرب وقد خولته الدولة سلطة واسعة ، فانتهز الفرصة وأعلن الأحكام العرفية التى وضعته بموضع الحاكم بأمره فى سوريا .

وقد أظهر ميلا شديداً فى حبه للعرب وتظاهره بالكره الشديد للاتحاديين . وكان يقال عنه إنه لا يميل إلى الطورانية كما كان زملاؤه من الاتحاديين بل كانت نزعته نزعة إسلامية ، ومشت هذه الخدعة على الناس وتقرب بها من العرب واستمال الأحرار من رجال سوريا والعراق يستشيرهم وينفذ رغائبهم واطمأنوا إليه وشرع يفتل بين الذروة والغارب وكان أول ما فعله معهم أن حمل بعض المقربين إليه والذين اتخذهم وساطة التفاهم على إقناع بعض ضباط العرب بتسنم وظائف

عالية ملكية وعسكرية وارسال قسم منهم إلى الحدود لحاجة الدولة إليهم ، ثم ما لبث أن أغلق أبواب مدرسة صف الضباط وكان فيها مايزيد على خمسمائة طالب عربي وزاد فى خدعته أن وقف مرة خطيباً فى حفل تكريم لبعض رجال العرب فقال :

« يجب عليكم يا أبناء العرب أن تحيوا مكارم أخلاق العرب ومجدهم منذ شروق الديانة الأحمدية ، أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التى وجدت قبل الإسلام عضواً على عربيتكم بالنواجذ ، ودافعوا عنها بكل قواكم اعملوا على ترقية العرب والعروبة وجددوا مدنيتكم ، قوموا قناتكم ، كونوا رجالا كاملين » . ثم قال :

وإنى أناشد الشبان العرب والترك قائلا : « إن هذين الشعبين مقضى عليهما بالفناء فى اللحظة التى يتخاذلون فيها ، فالنزاع والخلاف بين عمودى الإسلام لا بد أن يؤدى إلى سقوط ذلك الدين ويومئذ لا مفر من الوقوع تحت نير الاستعمار السلافى » .

أبعد هذه الخطبة شيء يشك فيه العرب ؟ ولكن جمال لم يكد ينتهى من هذه الخطبة حتى أخذ ينفذ خططه خطة بعد خطة كأنما هذه الخطبة وأمثالها من المظاهر كانت بمثابة المخدر يخدر الطبيب فيه الجسم ليبدأ عمل المشرط . والحقيقة التى لا مرية فيها أن الجانبين كان يجد فى سوء الظن عصمة ، وفى حسن الظن ورطة ، فإن الاتحاديين بعد أن أثاروا النعرات القومية وبعد أن وجد منهم العرب ما وجدوا صاروا لا يطمئنون إلى العرب ويعتقدون أن ما تركوه فى نفوسهم ليس من السهل إزالته بوعود . وأما العرب فإنهم أصبحوا لا يعتقدون بأقوال الاتحاديين ووعودهم وخطبهم أياً كانت . إنهم يرون بلادهم أصبحت هدف المطامع وأنها ستكون ميدان حرب وفعلا قد أخذ الحلفاء ينقصونها من أطرافها

وتركيا عاجزة عن الدفاع ، زد على ذلك الدعايات التى يقوم بها الحلفاء ، والأيدى اليهودية الخفية التى تلعب بالخفاء ، ووعود فرنسا للموارنة فى لبنان وإقبال هؤلاء على فرنسا وارتماؤهم فى أحضانها للخلاص من الحكم التركى بأى وجه كان ، كل ذلك زاد العلاقات توتراً ووقف كل فريق ينظر إلى صاحبه نظر المستريب ، استطاع جمال باشا إبعاد الضباط العرب إلى خارج بلادهم وأرسل فرقة من الجيش العربى إلى جناق قلعة فأضعف قوة المقاومة وخلا له الجو ، وهيأ حملته التى ساقها إلى قناة السويس ليحتلها فى اليوم الثانى من شباط عام ١٩١٥ ، ولكنه عاد إلى دمشق مغلوباً على أمره لقلة معداته ولعدم استعداده فأبدى عذراً بأنه ما قام إلا للاستطلاع ، وترك وراءه بعض القوات الصغيرة فى سيناء لإشغال القوات البريطانية وأعلن أنه يعد العدة لتهيئة حملة أخرى ، بيد أنه انصرف للانتقام من أحرار العرب ، فأمر باعتقالهم وأدخلهم السجن ثم عقد لهم « محكمة عسكرية » فى عالية وحوكموا محاكمة خيالية فأدانت الفريق الأول وأصدر ديوان الحرب قراراً بإعدامهم ، وفتح الناس عيونهم فى بيروت صباح يوم ٢١ أغسطس من عام ١٩١٥ على جثث أحد عشر حراً من أحرار العرب معلقة فى أعواد المشانق . واستمر جمال فى إرهابه وبطشه فألحق بهؤلاء الزعماء آخرين من خيرة رجال العرب ، فقد أصدر ديوان الحرب فى « عالية » من أعمال بيروت قراراً بإعدام البقية الباقية ، وفتح الناس عيونهم فى دمشق على سبع مشانق وفى بيروت على أربع عشرة مشنقة فى صبيحة يوم ٦ مايس من عام ١٩١٦ كان من بينهم عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوى والشيخ أحمد طباره وجرجى الحداد وشكرى العسلى ومحمد المحمصانى وأخوه محمود ، وقد استقبل هؤلاء الأبطال هذه الأراجيح برباطة جأش وعما قاله أحدهم وهو المرحوم سعيد عقل : « غفر الله لمن ظلمنى ، وأسأل ربى أن يكون

دمى الذى يراق سبباً فى المستقبل لحياة بلادى وشرفاً لعائلتى وأولادى» .

وقال المرحوم توفيق البساط : « مرحباً بأرجوحة الشرف مرحباً بأرجوحة الأبطال مرحباً بالعمد التى تستند إليها الأمم فى استقلالها مرحباً بالموت فى سبيل الوطن الحر . ولم يكتف جمال بهذه المأساة بل نفذ أحكامه بالنفى والإبعاد فأبعد « ٣٠٠ » أسرة من (سوريا وفلسطين ولبنان) نساء ورجالا وأطفالا أرسلوا إلى الأناضول بعد ما صادر أملاكهم وأموالهم . ونثرهم فى ولايات الأناضول وقراه كما ينثر الحب فى العراء لقد استند جمال باشا فى أحكامه هذه إلى ما وقع بيده كما يزعم المؤرخون أو كما يزعم هو فى مذكراته من الوثائق فى القنصلية الفرنسية وفى هذه الوثائق ما يدين هذه الأسر وأولئك الأبطال . وكان كل ما جاء فى إدانته أن فريقاً من هؤلاء أعضاء فى حزب اللامركزية ، كما يزعم أنه ثبت لديه أن فريقاً من الموارنة وغيرهم من بقية الطوائف المسيحية قدموا طلباً إلى حكومة فرنسا بواسطة قنصلها يطلبون فيه احتلال فرنسا لسوريا ، واستقلال ولاية بيروت استقلالا تاماً تحت حماية فرنسا ووصايتها ، وإدماج ولاية بيروت فى لبنان الذى يكون تحت سيادة فرنسا الفعلية ، وسواء أصح هذا أم لم يصح فإن لفرنسا أطماع لم تفتأ تعمل على تحقيقها فى سوريا وأن اليد اليهودية لم تفتأ تحرض على تحقيق هذه الأطماع . وقد لعبت هذه الأيدى الخفية دوراً مهماً فى حملها هذا السفاح على التنكيل بأحرار العرب . لقد كان أعضاء حزب اللامركزية يريدون إدارة خاصة لكل إقليم من أقاليم الأمة العربية ، ولا يريدون انفصالا عن الدولة العثمانية أما المتطرفون من العرب فإنهم لا يرضون بالحرية بديلا ولا يخضعون لأى شرط يمس استقلال بلادهم .

أثرت حوادث إعدام الأحرار وترحيل الأسر إلى أواسط الأناضول تأثيراً عميقاً فى العالم العربى والإسلامى فجزع لها شريف مكة وهو من

أكبر أمراء العرب نفوذاً لقد توسط لدى الاتحاديين بالعفو عنهم فأبوا وأصروا على إعدامهم وزاده جزعاً ما أثارته حقيبة وهيب باشا والي الحجاز من القلق فى نفسه فقد ألفى فى هذه الحقيبة خططاً تدل على إزالته من الوجود . يضاف إلى ذلك كله وجود جمعيات عربية فى بلاد الشام منظمة تنظيما محكما ترقب الأحوال وتطورها . وقد ملأ نفوسها التشاؤم ، فإن الدلائل جميعها تدل على أن تركيا لا تستطيع الاحتفاظ بمركزها لأنها ليست فى مكانة تقدرها على محافظة هذه الحدود المترامية وقد دخلت الحرب على غير استعداد .

لقد أراد الأتراك من شريف مكة أن يعلن الجهاد المقدس فهو سليل بيت النبوة والمسلمون ينظرون إليه نظر الاجلال فتباطأ الشريف وأبدى الأعذار وتمهل فى الأمر ، يرقب الحالة حتى بلغ الأمر من سوء الظن بين الاتحادين مبلغاً لا يمكن التفاهم بعده . والحقيقة التى لا غبار عليها أن أحرار العرب بدءوا يشعرون بوجوب ايجاد دولة عربية فى هذا الشرق الأوسط وأن الفرصة حانت لتحقيقها ، وأن المقومات كلها موجودة لتكوين دولة عربية ذات كيان مستقل تعيش بين دول الأرض . على ذلك كله تقدم الحسين إلى الأتراك فى تحقيق بعض من هذه الرغبة مع البقاء ضمن الدولة العثمانية فقد أبرق إلى أنور باشا :

« إن خروج الدولة العلية منصورة من الحرب الحاضرة يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها ولا سيما العرب والجانب الأهم من القتال فى بلادهم ، ويلوح لى أن إرضاء الشعب العربى يتوقف على مداواة قلبه الذى جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه بتهم سياسية مختلفة والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية بالدواء الآتى : إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين ، إنالة سوريا ما تطلبه من نظام لامركزى ، جعل إمارة مكة وراثية فى أولادى وإبقائها على حالتها الحاضرة ، فإذا قبلت

هذه المطالب ، فانى أتعهد بحشد القبائل العربية بقيادة أبنائى فى ميدان العراق وميدان فلسطين ، وإذا لم تقبل فأرجوكم ألا تنتظروا منى شيئاً سوى الابتهال للحق جل وعلا أن يهب للدولة النصر والتوفيق .

فرد عليه أنور أنه لا يوافق على العفو عن المتهمين وسينال كل عقابه وطلب من الشريف إرسال المجاهدين إلى ميادين القتال . متجاهلا كل مطلب . وبذلك ازداد التوتر وأصبح إصلاح ذات البين بين الأمتين صعبا .

العرب والحلفاء

أدركت بريطانيا الخطر الذى يهددها من جراء ما قام به الألمان فى ضم الترك إليهم ، ووجدت فى هذا الحلف خطراً مباشراً يهدد الهند فلم تجد بدآ من التقرب إلى العرب والتودد إليهم ، فهم الذين يكادون يسيطرون على هذه الطريق . لقد بسطت حمايتها على مصر ، وبسطت نفوذها على جنوب الجزيرة وجزر الخليج وعقدت معاهدات بينها وبين شيوخ القبائل هناك ولكنها ما زالت تنظر إلى قلب الجزيرة فإن للأتراك أربع فرق موزعة بين الحجاز وعسير واليمن . فكيف تضمن السلامة من هذه الناحية لقد استطاعت أن تستميل ابن سعود إلى جانبها بعد أن تردد فى الأمر ولم تخش من الأدريسى فى عسير ولكنها كانت تخشى الحامية التركية المؤلفة من فرقتين فى اليمن فكيف تستطيع شل حركتها ؟ لقد وجدت أن الاتصال بالشريف حسين خير ضامن لتحقيق مآربها وكانت قبلا قد اتصلت بالأمير عبد الله أحد أنجاله . فقد صادف أن مر بمصر فى سفره إلى الأستانة فى مفتتح عام ١٩١٤ وكان فيها كتشنر المعتمد البريطانى فزاره المعتمد ورد عبدالله الزيارة إليه ، وقد أعلم الأمير المعتمد أن والده يسعى لاستقلال الإدارة فى إمارته ، وأن التوتر بينه وبين الأتراك وصل حداً

قد ينذر بالثورة . وكان المستر ستورز السكرتير الشرقى فى دار الاعتماد البريطانى حاضراً . لفتت هذه الحادثة ملاحظة كتشنر فوجد فيها فائدة أهمها الحد من اندفاع الألمان والأتراك إلى فم الخليج العربى . ولكنه أجاب الأمير إجابة مشبطة إذ قال له إن سياسة بريطانية التقليدية هى سياسة صداقة مع تركيا ولذلك فهو لا يتوقع أن تتدخل بريطانيا فى حالة كهذه . ثم أتم الحديث بزيارة أخرى من المستر ستورز للأمير ، فأجاب ستورز بما يثبط العزم أيضاً وهكذا عاد عبد الله إلى الحجاز دون أن يعرف شيئاً عن نوايا بريطانيا . وفى خريف عام ١٩١٤ طلب من الأمير عبد الله أن يوضح موقف والده إذا أعلنت تركيا الجهاد المقدس ، فأخبر الجهة البريطانية أنه سوف يقف على الحياد ، عند ذلك أعلم بأن بريطانيا سوف تساعده على استقلال بلاده إذا اشترك معها فى الحرب اشتراكا فعلياً .

ومرت أشهر معدودات دون اتصال بين الجهة البريطانية والحجاز .

ثم حدث أن اتصل المستر ستورز مع الشريف فتداول معه الأمر بحضور بعض الزعماء من العرب الذين أفلتوا من يد جمال بالشام فاتفقوا على صيغة العرض الذى يقدمه الجانب العربى فكتب الشريف حسين فى ١٤ تموز عام ١٩١٥ الكتاب الأول إلى نائب جلالة ملك بريطانيا بمصر ما نصه :

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم :

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله : أقدم لجنابكم العزيز أحسن تحياتى الودية واحتراماتى وأرجو أن تعملوا ما فى وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة إليكم طيه ، المتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية ، وأود بهذه المناسبة أن أصرح لحضرتكم

ولحكومتكم ، أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا ، لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة . ثم يجب ألا تتعبوا أنفسكم بإرسال الطيارات أو رجال الحرب ، لإلقاء المناشير وإذاعة الشائعات ، كما كنتم تفعلون من قبل ، لأن القضية قد قررت الآن . وإنى لأرجو هنا أن تفسحوا المجال أمام الحكومة المصرية لترسل الهدايا المعروفة من الحنطة للأراضى المقدسة « مكة والمدينة » التى أوقف إرسالها منذ العام الماضى . وأود أن ألفت نظركم إلى أن إرسال هدايا هذا العام والعام الفائت سيكون له أثر فعال فى توطيد مصالحنا المشتركة وأعتقد أن هذا يكفى لإقناع رجل ذكى مثلكم ، أطال الله بقاءكم .

حاشية : أرجو ألا تزعجوا أنفسكم بإرسال أى رسالة قبل أن تروا نتائج أعمالنا هنا . خلا الجواب على مذكرتنا وما تتضمنه ، ونرجو أن يكون هذا الجواب بواسطة رسولنا كما نرجو أن تعطوه بطاقة منكم ليسهل عليه الوصول إليكم عندما نجد حاجة لذلك والرسول موثوق به .

المذكرة الأولى

مكة فى ٢ رمضان سنة ١٣٣٣ هـ (١٤ تموز سنة ١٩١٥) .

لما كان العرب بأجمعهم — دون استثناء — قد قرروا فى الأعوام الأخيرة أن يعيشوا وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة ، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم .

ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساعدهم وتعاونهم للوصول إلى أمانيهم المشروعة وهى الأمانى المؤسسة على بقاء شرفهم وكرامتهم وحياتهم ، ولما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا على أية حكومة أخرى بالنظر لمركزهم الجغرافى ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا . إنه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربى أنه من المناسب أن

يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبها أو ممثلها على الاقتراحات الأساسية الآتية :

أولا : أن تعترف انكلترة باستقلال البلاد العربية من مرسين — أدنة حتى الخليج الفارسى شمالا ، من بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ، ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوباً يستثنى من ذلك عدن التى تبقى كما هى — من البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سينا غرباً .

على أن توافق انكلترة أيضاً على إعلان خليفة عربى على المسلمين .

ثانياً : تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انكلترة فى كل مشروع اقتصادى فى البلاد العربية إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية .

ثالثاً : تتعاون الحكومتان الإنكليزية والعربية فى مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية ، وتأميناً لأفضلية انكلترة الاقتصادية فيها على أن يكون هذا التعاون فى كل شىء فى القوة العسكرية والبحرية والجوية .

رابعاً : إذا تعدى أحد الفريقين على بلاد ما ، ونشب بينه وبينها قتال وعراك فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد ، على أن هذا الفريق المعتدى إذا رغب فى اشتراك الفريق الآخر معه ففى وسع الفريقين أن يجتمعا معاً ، وأن يتفقا على الشروط .

خامساً : مدة الاتفاق فى المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاق بعام .

هذا ولما كان الشعب العربى بأجمعه قد اتفق والحمد لله على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو إيجاباً فى خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح .

وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلق جواباً فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء .

وفوق هذا فإننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا إذا لم يصل الجواب أحراراً فى القول والعمل من كل التصريحات والوعود السابقة التى قدمناها بواسطة على أفندى .

(٣)

من السير هنرى ماك ماهون إلى الشريف حسين

مصر فى ١٩ شوال ١٣٣٣ هـ (٣٠ أغسطس سنة ١٩١٥ م) .

إلى الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار فرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية ، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية ، السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل ، دولة الشريف حسين باشا ، سيد الجميع أمير مكة المكرمة ، قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائفين ، عمت بركته الناس أجمعين .

بعد رفع رسوم وافر التحيات العطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة أعرض ، أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص والإحساسات نحو انكلترة ، وقد يسرنا علاوة على ذلك أن تعلم سيادتكم ورجالكم برأى واحد وعقيدة واحدة وهى أن مصالح العرب هى مصالح انكلترة ومصالح انكلترة هى مصالح العرب ، وأود بهذه المناسبة أن أؤكد لكم ما قاله اللورد كتشنر فى الرسالة التى وصلتكم بواسطة على أفندى ، وهى الرسالة التى أوضح لكم فيها بصراحة رغبتنا فى استقلال البلاد العربية وسكانها وموافقتنا على أن يكون الخليفة عربياً عريق العروبة .

أما ما يتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا فى مثل هذه التفاصيل — والوقت قصير والحرب قائمة — سابق لأوانه ، وخاصة أن تركيا

لا تزال تحتل قسما كبيراً من الأراضى التى أشرتم إليها فى اقتراحكم احتلالا تاماً ، ثم يجب أن أضيف إلى ذلك ، أننى علمت بدهشة وألم أن بعض العرب فى هذه الأقسام لا يرغبون فى مساعدتنا ، بل يقدمون مساعدتهم الفعلية بالسلاح الألمان والأتراك ، أعنى « للهدامين الجدد ، والظالمين القدماء » . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإننا على استعداد لأن نرسل لفخامتكم المنح المطلوبة للأراضى المقدسة حالما تعلموننا كيف وأين ترغبون تسلمها ، ونحن نهيئ الأسباب اللازمة ليتمكن رسولكم من الوصول إلينا بكل أمان وسلام .

وتفضلوا بقبول احترامنا . التوقيع : ا . ه مالك ماهون

(٣)

من الشريف حسين إلى السير هنرى مالك ماهون .

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة فى ٢٩ شوال ١٣٣٣ ، (٩ إيلول سنة ١٩١٥) .

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله .

بمزيد السرور والغبطة تلقيت كتابكم المورخ فى ١٩ شوال وطالعته بكل احترام واعتبار ، رغم شعورى بغموضه وبرودته ، فيما يتعلق بنقطتنا الأساسية ، أعنى نقطة الحدود .

وأرى من الضرورى أن أؤكد لسعادتكم إخلاصنا نحو بريطانيا العظمى واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع فى كل الشئون وفى أى شكل ، وفى أية ظروف ويجب أن أؤكد لكم أيضاً أن مصالح اتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التى ذكرتها لكم ، ويعذرنى فخامة المندوب إذا قلت بصراحة إن البرودة والتردد اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود وقوله إن البحث فى هذه الشئون إنما هو إضاعة للوقت ، وأن

تلك الأراضى لاتزال بيد الحكومة التى تحكمها ، ويعذرنى فخامته إذا قلت إن هذا كله يدل على عدم الرضا أو على النفور أو على شىء من هذا القبيل .

فإن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل نتمكن من إرضائه ومفاوضته بعد الحرب بل هى مطالب شعب يعتقد أن حياته فى هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد ، وهذا ما جعل الشعب يعتقد أنه من الضرورى البحث فى هذه النقطة قبل كل شىء مع الدولة التى يثقون بها كل الثقة ويعلقون عليها كل الآمال وهى بريطانيا العظمى . وإذا أجمع هؤلاء على ذلك ، فإنما يجمعون على سبيل الصالح المشترك ، وهم يرون أنه من الضرورى جداً أن تنضم الأراضى المجزأة ليعرفوا على أى أساس يؤسسون حياتهم ، كيلا تعارضهم إنكلترة أو إحدى حليفاتها فى هذا الموضوع مما يؤدى إلى نتيجة معاكسة الأمر الذى حرمه الله وفوق هذا فإن العرب لم يطلبوا — فى تلك الحدود — مناطق يقطنها شعب أجنبى ، بل هى عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها .

أما الخلافة فإن الله يرضى عنها ، ويسر الناس بها .

وأنا على ثقة يا صاحب الفخامة أنكم لا تشكون قط بأنى لست أنا شخصياً الذى يطلب تلك الحدود التى يقطنها عرب مثلنا ، بل هى مقترحات شعب بأسره ، يعتقد أنها ضرورة لتأمين حياته الاقتصادية .

أو ليس هذا صحيحاً يا فخامة الوزير ؟ وبالاختصار فإننا ثابتون فى إخلاصنا ، نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع أكنتم راضين عنا أم غاضبين . أما ما يتعلق بقولكم بأن قسما من شعبنا لا يزال يبذل جهده فى سبيل تأمين مصالح الأتراك . فلا أظن أن هذا يبرر البرودة والتردد اللذين شعرت بهما فى كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود ،

الموضوع الذى لا أعتقد أن رجلا مثلكم ثاقب الرأى ينكر أنه ضرورى لحياتنا الأدبية والمادية وأنا حتى الساعة لا أزال أنفذ ما تأمر به الديانة الإسلامية فى كل عمل أقوم به ، وأراه مفيداً وصالحاً لبقية المملكة ، وإنى سأستمر فى هذا الرأى إلى أن يأمر الله بغير ذلك . وأود هنا ياصاحب الفخامة أن أؤكد لكم بصراحة أن الشعب ومن جملته هؤلاء الذين تقولون إنهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود وقضية المحافظة على ديانتهم وحمايتهم من كل أذى وخطر . وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقاً لسياستها فى هذا الموضوع فما عليها إلا أن تعلمنا به ، وأن تدلنا على الطريق التى يجب أن نسلكها . ولذلك نرى من واجبنا أن نؤكد لكم أننا سنطلب إليكم فى أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا فى بيروت وسواحلها ، ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت نظركم إلى أن خطتنا هى أمن على مصالح انكلترة من خطة انكلترة على مصالحنا ، ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران فى المستقبل سيقلق أفكارنا كما يقلق أفكارها .

وفوق هذا فإن الشعب البيروتى لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء وقد يضطرنا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة تفوق فى صعوبتها المتاعب الحاضرة ، وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة ، وأنا أصرح بهذا رغم أنى أعتقد وأومن بالتعهدات التى قطعتموها فى كتابكم .

ويستطيع معالى الوزير وحكومته أن يثق كل الثقة بأننا لا نزال عند قولنا وعزيمتنا وتعهداتنا التى عرفها مستر ستورز منذ عامين . ونحن ننتظر اليوم الفرصة السانحة التى تناسب موقفنا وخاصة فيما يتعلق بالحركة

التى أضحت قريبة ، والتى يدفعها إلينا القدر بسرعة ووضوح لتكون حجة — نحن والذين يرون رأينا — فى العمل ضد تركيا دون أن نتعرض للوم والنقد .

وأعتقد أن قولكم : « بأن بريطانيا لا تمسكم ولا تدفعكم للاسراع فى حركتكم مخافة أن يؤدى هذا التسرع إلى تصديع نجاحكم، لا يحتاج إلى إيضاح إلا فيما يتعلق بالأسلحة والذخائر عند الحاجة . أعتقد أن فى هذا كفاية .

(٤)

من السير هنرى مالك ماهون إلى الشريف حسين .

القاهرة فى ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩١٥ (١٥ ذى الحجة سنة ١٣٣٣)

إلى شريف مكة مع الألقاب .

تلقيت كتابكم المؤرخ فى ٢٩ شوال بكثير من الغبطة والسرور ، وكان للعبارات الودية المخلصة التى وردت فيه أكبر تأثير فى نفسى ، وإنه يؤسفنى أنكم لاحظتم فى كتابى الأخير ، وحديثى عن قضية الحدود شيئاً من البرودة والتردد ، مع أننى لم أكن أقصد ذلك بل كنت أود أن أقول بأن الوقت لم يحن بعد للبحث فيها بحثاً منتجاً ، هذا كل ما أردت قوله ، وقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعلقون أهمية كبرى على قضية الحدود وأنكم تعتبرونها من المسائل الحيوية ، فأرسلت مضمون كتابكم إلى الحكومة البريطانية وأنه ليسرنى أن أرسل إليكم البيانات التالية ، التى أثق كل الثقة أنها تفوز برضائكم .

إن مرسين واسكندرونة وبعض الأقسام السورية الواقعة فى غربى دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن أن يقال عنها إنها عربية محضة ، فيجب أن تستثنى من الحدود التى ذكرتموها ، ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات على ألا تنقص شيئاً من

اتفاقاتنا مع زعماء العرب أما الأراضي التي تستطيع إنكلترة العمل فيها بملء الحرية ودون أن توقع ضرراً بحليفتها فرنسا ، فإن لي السلطة التامة باسم حكومة صاحب الجلالة أن أعطيكم التأمينات التالية جواباً على كتابكم :

١ — إن إنكلترة مستعدة على أساس تلك التعديلات أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها شريف مكة .

٢ — تحمي بريطانيا الأراضي المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوحدتها .

٣ — تقدم بريطانيا للعرب عند الحاجة كل مساعدة أو نصيحة تلزم وتعاونهم في تشكيل أفضل شكل من أشكال الحكومة في مختلف البلاد العربية .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن العرب يوافقون على استشارة ومعونة وإدارة بريطانيا العظمى وحدها ويرضون بأن يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون إليهم بتنظيم دوائر مملكتهم من البعثة الانكليزية .

أما ما يتعلق بولايتي البصرة وبغداد فإن العرب يعرفون أن مركز انكلترة ومصالحها فيها يتطلب شكلا إدارياً خاصاً ومراقبة خاصة للمحافظة على تلك الأنحاء من الاعتداءات الخارجية ، وتأمين راحة واطمئنان السكان وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها .

وإني لعلى ثقة بأن هذا التصريح يجعلكم أبعد ما تكونون عن الشك في عطف بريطانيا على أماني أصدقائها « التقليديين » العرب ، ويؤدي حتما إلى التحالف والعمل على طرد الأتراك من البلاد العربية وإنقاذ العرب من النير التركي الذي كان وما يزال يضغط على أعناقهم منذ أعوام .

لقد قصرت كتابي هذا على الشئون العظيمة الأهمية ، فإذا كان لديكم

شئون أخرى ترغبون فى المذاكرة بشأنها ولم أشر لها فى كتابى هذا فإن فى وسعنا البحث فيها فى فرصة مناسبة فى المستقبل .

وقد تلقيت بالسرور والرضا نبأ وصول المحمل الشريف والهدايا المرسلة بكل دقة ونظام بفضل التعليمات والإرشادات القيمة التى قدمتموها وذلك بالرغم من الأخطار والمصاعب التى خلفتها الحرب الحاضرة . وأرجو الله أن يعيد السلام والأمان والحرية سريعاً إلى جميع الشعوب . لقد أرسلت إليكم هذا الكتاب بواسطة رسولكم النشيط الأمين الشيخ محمد بن عارف عريفان وهو سيطلعكم على بعض الشئون التى لم أذكرها فى كتابى .

(٥)

من الشريف حسين إلى السير هنرى مالك ماهون

بسم الله الرحمن الرحيم .

(مكة فى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ — ٥ تشرين الثانى سنه ١٩١٥)

لقد تلقيت بسرور كتابكم الكريم المؤرخ فى ١٥ ذى الحجة وها أنا أجيبكم عليه بما يلى :

١ — رغبة فى تسهيل الاتفاق وخدمة الإسلام واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين واعتماداً على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة ، فإننا نتنازل عن إصرارنا فى ضم مرسين وأدنة إلى المملكة العربية .

أما قضية حلب وبيروت وسواحلها فهى عربية صرفاً ، وليس هناك فرق بين المسلم العربى والمسيحى العربى فكلاهما من نسل واحد . وسنسير نحن المسلمين على خطة سيدنا عمر بن الخطاب وسواه من الخلفاء الراشدين الذين فرضوا على المسلمين — بموجب الديانة الإسلامية — أن يعاملوا المسيحيين كما يعاملون أنفسهم ، وقد قال سيدنا عمر فى حديث له عن

المسيحيين ، بأن لهؤلاء ما لنا من حقوق وواجبات ، وعلى هذا فإن المسيحيين سيتمتعون بما نتمتع به من حقوق بما يتفق ومصلحة الشعب أجمع

٢ — لما كان العراق قسما من المملكة العربية وكان مركز حكوماتها فى عهد على بن أبى طالب والخلفاء الذين تبعوه ، ولما كان هذا القطر مهداً لحضارة العرب ومدنيتهم وفيه أنشئت أبنيتهم الأولى وفيه عظمت قوتهم فإن العرب القريبين والبعيدين ينظرون إلى هذا القطر نظرة اعتبار خاصة ولا يستطيعون أن ينسوا بسهولة تقاليدهم وذكرياتهم ، ولذلك أعتقد أنه ليس فى المستطاع إقناع الشعب العربى بالتنازل عن هذا القطر ، إنما رغبة منا فى تسهيل الاتفاق واعتماداً على عهودكم فى المادة الخامسة من كتابكم ، وحفظاً لمصالحنا المشتركة فى هذا القطر ، فقد نوافق أن نترك الآن لمدة قصيرة الأراضى التى تحتلها الجيوش الانكليزية ، تحت إدارة انكلترة لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة احتلال تلك المنطقة واحترام اتفاقكم مع شيوخها .

٣ — إذا كنتم ترغبون فى الإسراع بالثورة فإننا نرى كثيراً من المخاوف . وأول ما نخشاه أن يقوم مسلمو الطرف الآخر ويلوموننا على حركتنا وثورتنا على حكومة إسلامية . ثم هناك أمراً آخر نخشاه ، وهو أننا إذا وقفنا فى وجه الأتراك ووراءهم جميع القوى الألمانية ، فإننا لا نستطيع أن نعرف إذا كان من الممكن أن تضعف إحدى الدول المحالفة وتطلب الصلح فهل تتركنا انكلترة وحدنا أمام الأتراك أم لا ! فإذا تم هذا وبقى العرب وحيدين أمام الأتراك فماذا نصنع ؟

٤ — إن الأتراك لا يكادون يرونا وحيدين حتى يعمدوا إلى الانتقام منا فيعبثوا بحقوقنا المادية والمعنوية ، ويعتدوا على كرامتنا وشرفنا بمساعدة حليفتهم ألمانيا ، هذه أمور يجب النظر إليها منذ الآن بعين الاعتبار لأن لها علاقة خاصة بقضيتنا .

٥ — عندما يعرف العرب أن حكومة بريطانيا العظمى هى حليفتهم لا تدعهم وحدهم عند انتهاء الحرب وعقد معاهدة الصلح ، وتمد يدها دواماً لمساعدتهم والدفاع عنهم عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس مطمئنة لا يشوبها شيء من الخوف والحذر .

٦ — إن كتابنا المؤرخ ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ يضمنا على ما أعتقد عن إعادة رأينا فيما يتعلق بالمادتين الثالثة والرابعة من كتابكم الأخير بشأن الإدارة والاستشارة الحكومية والموظفين على ألا يكون (كما صرحتم) — تدخل فى الشئون الداخلية .

٧ — إنا ننتظر وصول جوابكم النهائى الصريح على هذه الاقتراحات بأسرع ما يمكن فقد أبدينا كل تساهل فى الموضوع فى سبيل الوصول إلى اتفاق يرضى الفريقين .

ونحن نعرف أن نصيبنا من هذه الحرب إما نجاح يؤمن للعرب حياة تتفق وتأريخهم القديم ، أو انقراض فى سبيل الوصول إلى أمانيهم ومطالبهم ولو لم أكن أعرف أن العرب مستعدون للتضحية بأرواحهم فى سبيل الوصول إلى أمانيهم لكنت أفضل أن أصعد إلى رأس جبل وأنزوى فيه ولكن العرب بأسرهم يصرون علىّ بأن أقود حركتهم حتى النهاية وليحفظكم الله وينصركم .

(٦)

من السر مالك ماهون إلى الشريف حسين

القاهرة فى ١٣ كانون الأول سنة ١٩١٥ (٩ صفر سنة ١٣٣٤)

وبعد فقد وصلنى كتابكم الكريم بتأريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ وسرنى ما رأيت فيه من قبولكم إخراج ولايتى مرسين وأدنة من حدود البلاد العربية ، وقد تلقيت أيضاً بمزيد السرور والرضا تأكيداتكم أن

العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب « رضى الله عنه » وغيره من الخلفاء الأولين : التعاليم التى تضمن حقوق الأديان وامتيازاتها على السواء ، هذا وفى قولكم أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يعلم منه طبعاً أن هذا يشمل البلاد الداخلة فى حدود المملكة العربية لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء .

أما بشأن ولايتى حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنها ودونت ذلك عندها بعناية تامة ، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيها فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق وستخابركم بهذا الشأن مرة أخرى فى الوقت المناسب . إن حكومة بريطانيا مستعدة لأن تعطى كل الضمانات والمساعدات التى فى وسعها إلى المملكة العربية ولكن مصالحها فى ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة ، وأننا نستصوب تماماً رغبتكم فى اتخاذ الحذر ، ولسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم ، ولكننا فى الوقت نفسه نرى من الضرورى جداً أن تبذلوا كل مجهوداتكم فى جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة ، وأن تحثوهم على ألا يمدوا يد المساعدة لأعدائنا بأى وجه كان ، فإنه على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التى يمكن للعرب أن يتخذوها لإسعاف غرضنا عندما يجىء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته ، وفى هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا العظمى لا تنوى إبرام أى صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الألمان والأتراك . هذا وعربونا على صدق نيتنا ولأجل مساعدتكم فى مجهوداتكم فى غايتنا المشتركة فإنى مرسل مع رسولكم الأمين مبلغ عشرين ألف جنيه وأقدم فى الختام عاطر التحيات القلبية .

(٧)

من الشريف حسين إلى السير هنرى ماك ماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة فى ٢٥ صفر سنة ١٣٣٤ (أول كانون الثانى ١٩١٦)

تلقينا كتابيكم المؤرخين فى ٩ صفر فسرنى ما جاء فيهما ، وذهب ما كان يقلقنى وأظن أن مخابرتكم قد أدركتم بعد وصول الشريف محمد فاروق واجتماعه إليكم بأن أعمالنا حتى الآن لم تكن لغايات وميول شخصية ، بل إن كل شىء كان بنتيجة مطالب ورغائب شعبنا ، وإننا لسنا سوى ناقلين ومنفذين لرغائب الشعب وإلحاحه .

وهذه الحقائق هى دوماً فى فكرى أهتم لها كل الاهتمام وأرجو أن تجد فى نفسكم مكانها من الانتباه والاعتبار .

إن ما يتعلق بقضية العراق وقضية التعويض الذى اقترحناه لقاء احتلاله فإننى فى رغبة فى تقوية ثقة بريطانيا بنوايانا فى القول والعمل أدع أمر تقدير المبلغ إلى حكمتها وعدالتها .

أما ما يتعلق بالأقسام الشمالية ومرافئها فقد أبدينا لكم فى كتابنا السابق أقصى ما يمكن أن نوافق عليه من تعديلات ونحن لم نتساهل هذا التساهل إلا لتحقيق الرغائب التى يريدها الله العلى الأعلى أن تتحقق ، وهذا الشعور هو الذى حدانا لأن نتجنب كل ما من شأنه أن يسيء إلى تحالف انكلترة وفرنسا والاتفاق المعقود بينهما خلال هذه الحرب ومصائبها .

(٨)

من السير هنرى ماك ماهون إلى الشريف حسين .

القاهرة فى ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٣٤ (٣٠ كانون الثانى سنة ١٩١٦)

تلقينا بسرور كتابكم المؤرخ فى ٢٥ صفر بواسطة رسولكم الموثوق به واطلعنا منه على رسالتكم الشفوية وإننا لنقدر حق التقدير الدوافع التى تقودكم فى هذه القضية الهامة ، ونعرف جيداً أنكم تعملون فى صالح العرب وأنكم لا ترمون إلى شىء فى عملكم غير صالحهم وحريتهم .

وقد عنيت عناية خاصة بملاحظتكم بشأن ولاية بغداد ، وسنبحث هذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عندما تتم هزيمة الأعداء ونصل إلى التسويات السلمية .

أما ما يتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم فى تجنب كل ما من شأنه الإساءة إلى تحالف انكلترة وفرنسا وسررت جداً بإبداء مثل هذه الرغبة .

وأظنكم تعرفون جيدا أننا مقررون قراراً نهائياً بألا نسمح بأى تدخل (مهما قل شأنه) فى اتفاقنا المشترك فى إيصال هذه الحرب إلى الفوز ، ثم متى انتهت الحرب ، فإن صداقة فرنسا وانكلترة ستقوى وتشتد وهى اللتان بذلتا الدماء الإنكليزية والفرنسية جنباً إلى جنب فى سبيل الدفاع عن الحقوق والحريات . والآن وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا فى الدفاع عن الحقوق والحريات وتعمل معنا فى سبيل هذه القضية الهامة فإننا لنرجو الله أن تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد صداقة دائمة تعود على الجميع بالسرور والغبطة . وقد سررنا جداً للحركة التى تقومون بها لإقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة أعدائنا ونترك لفطنتكم وتقديراتكم تقرير الوقت المناسب لاتخاذ تدابير أوسع من هذه .

إعلان الثورة ومكانة العرب
فى انتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى

لم يكن إعلان الثورة العربية مفاجأة للعالم ، فإن جميع المقدمات التى مرت بنا تؤدى إلى هذه النتيجة ، فقد استيقظ العرب باليقظة الكبرى التى عمت أرجاء العالم ، وفتحوا عيونهم بين يدى الخلافة التى كانت تحكم أقواماً وشعوباً متنوعة ، ورأوا ما تفعله هذه الأقوام ، ثم ما يقوم به العنصر الحاكم فى ثورة هائجة من النعرة القومية الطورانية والنية المبيتة فى تتريك بقية العناصر المنضمة إلى الدولة بالرغم من ضعف سلطان الخلافة وتضعضع مركزها فى أقسامها الغربية والشرقية ، وفى العرب رجال لهم فى جيش الدولة مكانة وفى إدارتها شأن وعنصرهم هو العنصر الغالب ، والثقافة السائدة هى الثقافة العربية الإسلامية والقرآن الذى تستظل بظلاله الخلافة الإسلامية ينطق بلسان عربى مبين . فلم يرضوا بهذه المكانة ؟ ولم يصبروا حتى تستتركهم جمعية الاتحاد والترقى ، لقد أظهروا مقدرة فائقة فى جميع الميادين الحربية والإدارية وساهم رجالهم فى قمع الظلم والاستبداد وإعادة الدستور ، فقد زحف القائد العربى محمود شوكت باشا بالجيش على العاصمة وأرغم الخليفة على التنازل وعلى إعادة الدستور . أفلا يمكن للعرب إذن أن يحددوا مركزهم فى هذه الدولة ؟ كل أولئك أهابت بالعرب ، وكانت الفرصة سانحة فى هذه الحرب العالمية فتقدموا للدولة يستوضحونها ويطلبون تحديد مركزهم فأغضب ذلك الاتحاديين وفعل جمال باشا فى أحرارهم ما فعل . ما كان للعرب بد من خوض المعركة ، ولكن كيف يكون ذلك وهناك معسكران متطاحنان : تركيا والألمان من جهة وانكلترة وفرنسا وبقية الحلفاء من جهة أخرى ، لم ير العرب بدآ من الانحياز إلى

جانب الحلفاء بعد أن ألقى الشريف حسين الحجة على الأتراك بمطالبة العفو عن الأحرار قبل أن يشنقهم جمال باشا ثم بمطالبة تحديد مكانة الأمة العربية ضمن الخلافة من حيث إنشاء إدارة لا مركزية فرفض الأتراك ذلك كله . وضع الشريف مع جمعيتى الفتاة والعهد العربيتين مشروعاً على أساسه بدأ الاتصال بالغرب ودخلت المفاوضة بطريق المراسلة بعد أن كانت المواجهة قد مهدت لها من قبل ، وتحددت صلات العرب بالحلفاء بالوثائق المتقدمة التى جرت على أساس رسائل بين الشريف وبين مالك ماهون . وكانت الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم السبت ٩ شعبان ١٣٣٤ الموافق ١٠ حزيران لعام ١٩١٦ حداً فاصلا بين العرب والترك فى خلافة آل عثمان ، حيث انطلقت نيران العرب على ثكنات الجيش العثمانى مؤذنة بإعلان الاستقلال والثورة وعزز الشريف هذه الوثبة بمنشور على العالم الإسلامى والعربى جاء فيه : إن الاتحاديين خرجوا على العهد الأخوى بين الشعبين ، رغم المعونة الصادقة التى بذلها العرب فى ظل الخلافة ، وخرجوا على الشريعة فبدلوا الأحكام ، وشنقوا أحرار العرب جماعات وفرادى ، وشردوا أسرهم ونفوها من أرضها ، وصادروا الأموال ، ولقد نصحنا فلم ينفع النصح ، وقد وفقنا الله لأخذ الاستقلال فضربنا على أيدى الاتحاديين وانفصلت بلادنا عن المملكة العثمانية انفصالا تاماً وأعلنا استقلالا لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجى جاعلين الغاية نصرة دين الإسلام وإعلان شأن المسلمين مستندين فى كل أعمالنا على أساس أحكام الشرع الشريف ولن يكون لنا مرجع سواه فى جميع الأحكام وأصول القضاء .

لقد استطاع جيش الثورة أن يستولى على مدن الحجاز الكبرى فى أقل من ثلاثة أشهر عدا المدينة المنورة فإن الحامية التركية بقيت محاصرة فيه إلى ما بعد انتهاء الحرب . وصل إلى الحجاز ضباط العرب

الذين أفلتوا من الجيش العثماني ونظموا جيوشها على أسس نظامية ووصلتهم بعض العدة من الحلفاء . وقد ارتاب الحلفاء فى أمر الثورة إما خوفاً منها أن تتغلب عليهم أو أنهم كانوا لا يريدون الاعتراف بها ولكنهم أذعنوا بعد أن أدركوا أهميتها . وأنها هى التى قيدت هجوم الأتراك على القناة وقد اعترف بذلك جمال باشا نفسه ، زد على ذلك فإنها هى التى حالت دون نجاح الحملة التركية الألمانية إلى جنوب الجزيرة ولو نجحت هذه الحملة لأقفلت البحر الأحمر ولأفسحت المجال للنشاط الألمان ، أما من الوجهة الستراتيجية فقد أصبحت هذه المنطقة الموالية للحلفاء بعد انضمام ابن سعود إليهم والتى تمتد من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسى خير ضمان لسلامة ملاحتهم ، وكتب جمال باشا فى مذكراته يقول : لولا ثورة العرب ما جرأت كتيبة انكليزية فى عام كامل أن تطأ ضفة القناة الشرقية .

تقدمت الجيوش العربية تفتح فى أرض الحجاز حتى وصلت العقبة فى شهر تموز عام ١٩١٧ فاتخذتها نقطة ارتكاز ، وأخذت بعد ذلك تتقدم وتزيل حاميات الأتراك وتصطدم بقواتهم حتى وصلت إلى دمشق فدخلتها ظافرة فى اليوم الأول من شهر تشرين الأول لعام ١٩١٨ ودخلت معها الجيوش البريطانية ، ثم والت الكتائب العربية زحفها فدخلت حمص وحماة وحلب ولم يمض شهر حتى تم تحرير سوريا جميعها ، وقد قام ضباط الجيش العربى من العراقيين بدور مهم فى هذه الحركة ، وكان أول ما فعله الأمير فيصل أن شكل حكومة عربية فى دمشق ، وطفقت الأعلام العربية ترفرف على المدن السورية جميعها .

عهود الحلفاء، اتفاق سايكس — بيكو، وعد بلفور

بدأ الشريف حسين مراسلاته الرسمية قبل الثورة مع السر هنرى ماك ماهون فى يوم ١٤ تموز لعام ١٩١٥ وانتهت بآخر كتاب حرره ماك ماهون مؤرخ ٢٠ كانون الثانى عام ١٩١٦ وأعلن الثورة العربية فى ١٠ حزيران لعام ١٩١٦ فى مكة ودخلت جيوش العرب دمشق بقيادة الأمير فيصل فى اليوم الأول من شهر تشرين الأول لعام ١٩١٨ وأعلنت الهدنة فى اليوم الثلاثين من هذا الشهر نفسه لعام ١٩١٨ وظن العرب أنهم سيجنون ثمار عملهم وحلفهم بإعلان استقلال بلادهم الذى تعهد به الحلفاء ولكنهم فوجئوا بأمر لم يكن فى الحسبان. فاجأهم اتفاق سايكس بيكو الذى عقد فى مايس عام ١٩١٦ وهو اتفاق متمم للاتفاق الرئيسى مع روسيا والقاضى بتقسيم الدولة العثمانية بعد نجاح الحرب بين هذه الدول الثلاثة. وكانت حصة روسيا من هذه الغنيمة فيما يقع من بلاد تركيا خارجاً عن البلاد العربية.

وتقضى معاهدة سايكس — بيكو بتقسيم بلاد الشام (سوريا لبنان، فلسطين) والعراق تقسيما مزقت به هذه البلاد شر ممزق، فقد جعلت فلسطين منطقة خاصة تتكون فيها إدارة دولية يشترك بالمشورة فى تكوينها شريف مكة.

وقسمت البقية الباقية إلى مناطق تطلق يد كل دولة فى منطقة واحدة منها اطلاقاً تاماً وجعلت لكل من الدولتين نفوذاً خاصاً فى منطقة من المنطقتين الداخليتين المتجاورتين على أن تتكون منهما دولة عربية أو حلف من دول عربية، دون مراعاة لوضع طبيعى أو اجتماعى أو سياسى فى صالح هذه البلاد وقد روعى فى هذه الخطة المصالح الاستعمارية التى تؤيد نفوذ الاستعمار فى هذه البلاد وتحول دون وحدتها فى يوم من الأيام.

وفى ٢ شباط من عام ١٩١٧ كتب وزير خارجية بريطانيا إلى اللورد روتشلد تصريحاً عرف باسم (وعد بلفور) هذا نصه : لى الشرف أن أخبركم باسم جلالته عن شعور الوزارة البريطانية فيما وضعته وأقرته بالنسبة إلى مساعى الصهيونية : إن حكومة جلالته تنظر بعين الرضا إلى إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين وستبذل قصارى جهدها لتسهيل الوصول إلى هذا الهدف ، على أن يكون واضحاً أنه لن يحدث من جراء هذا ما يضر بالحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية فى فلسطين أو بالحقوق المدنية والسياسية التى حصل عليها اليهود فى بلد آخر » .

لم يدر الحسين باتفاق سايكس — بيكو حتى نشره البلاشفة بعد سقوط القيصرية الروسية فاغتنم الأتراك الفرصة ومدوا أيديهم إلى العرب بصلح منفرد متخذين من هذا الاتفاق وسيلة ، فالتفت الحسين إلى الانكليز يستوضحهم فجاءه الرد بهذه المذكرة :

من المعتمد البريطانى فى جدة إلى الشريف حسين

جدة فى ١٧ شباط ١٩١٨

جلالة صاحب السيادة العظمى ملك الحجاز وشريف مكة وأميرها المعظم . بعد بيان ما يجب بيانه من الاحترام والتوقير قد أمرنى جناب فخامة نائب جلالة الملك أن أبلغ جلالتكم البرقية التى وصلت إلى فخامته من نظارة الخارجية البريطانية بلندن ، وقد عنونتها حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى باسم جلالتكم وهذا نصها بالحرف الواحد :

إن الرغبة والصراحة التامة التى اتخذتموها جلالتكم فى إرسال التحريرات التى أرسلها القائد التركى فى سوريا إلى سمو الأمير فيصل

وجعفر باشا إلى جناب نائب جلالة الملك كان لها أعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ، وإن الإجراءات التي اتخذتموها جلالتكم فى هذا الصدد لم تكن إلا رمزاً يعبر عن تلك الصداقة والصراحة التى كانت دائماً شاهد العلاقة بين كل من الحكومة الحجازية وحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ومما لا يحتاج إلى دليل أن السياسة التى تنسج عليها تركيا هى إيجاد الارتياب والشك بين دول الحلفاء والعرب الذين هم تحت قيادة وعظيم ارشادات جلالتكم ، قد بذلوا الهمة الشماء ليظفروا بإعادة حريتهم القومية . إن السياسة التركية لا تفتأ تغرس ذلك الارتياب بأن توسوس للعرب أن دول الحلفاء يرغبون فى الأراضى العربية وتلقى بأذهان الحلفاء أنه يمكن إرجاع العرب عن مقصدهم ، ولكن أقوال الدساسين لن تقوى على إيجاد اختلاف بين الذين اتجهت عقولهم إلى فكر واحد وغرض واحد . إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاءها ما زالت واقفة موقف الثابت لكل نهضة تؤدى إلى تحرير الأمم المظلومة ، وهى مصممة أن تقف بجانب الأمم العربية فى جهادها لأن تبنى عالماً عربياً يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثمانى ، ويتغلب فيه الاتحاد على التنافس المصطنع الذى أحدثه الموظفون الترك . إن حكومة جلالة ملك بريطانيا تكرر وعدها السالف بخصوص تحرير الأمم العربية ، وإن حكومة جلالة ملك بريطانيا قد سلكت مسلك التحرير وتقصد أن تستمر عليه بكل استقامة وتصميم بأن تحفظ العرب الذين تحرروا من السقوط فى وهدة الدمار ، وتساعد الذين لا يزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم . وفى الختام أتمنى قبول خالص التحيات وعظيم الاحتشامات والتمنيات .

وفزع العرب من وعد بلفور فاستوضح الحسين الحكومة البريطانية

فأرسلت إليه رسولا أكد له شفوياً أن هذا الوعد لا يمس حقوق العرب السياسية والاقتصادية . والحقيقة التي انتهت إليها هاتان القضيتان ما يأتي :

فيما يخص فلسطين : لقد كان الهجوم الألماني التركي على قناة السويس مدعاة تفكير البريطانيين حيث انتهوا إلى أن شواطىء البحر الأحمر غير كافية لحفظ القناة وأن فلسطين نقطة ستراتيجية مهمة للقناة فلا بد من اتخاذ وسيلة لجعلها تحت الحماية البريطانية . فكانت هذه الوسيلة ادعاء الصهيونية لها . وقد جاء بمذكرات سفير بريطانيا السابق في فرنسا اللورد برتيس : إن الخطط المؤدية إلى تكوين دولة يهودية في فلسطين قد تم الاتفاق عليها مع اليهود من جهة ومع لويد جورج ولورد جراى من جهة أخرى في كانون الثاني عام ١٩١٥ ولكن هذا الاتفاق لم ينشر . وقد كان ادعاء الصهيونيين للوطن القومي وسيلة أخرى لإبعاد فرنسا التي تدعي أن لها حقاً في فلسطين . وبذل الصهيونيون جهوداً جبارة اتخذوا لها شتى الوسائل لتحقيق هذا الوعد فاقتنعت به فرنسا في ٩ شباط عام ١٩١٨ واقتنعت إيطاليا في ٨ مايس عام ١٩١٨ واقتنعت أمريكا في ٣١ أغسطس ١٩١٨ ومهما فعل العرب وغيرهم واحتجوا وثاروا ودافعوا ودخلوا الحرب ونشر من الكتب والاقتراحات في الكتاب الأبيض وغيره فإن الخطة موضوعة منذ ١٩١٥ إلى أن خرج الانجليز من الانتداب فسلمت فلسطين إلى اليهود وشرد العرب في العراء وأغمطت حقوقهم كلها وقد عضدت بريطانيا وصديقتها أمريكا اليهود في تكوين دولتهم ونسيتا ما جاء في تصريحات ولسن وعهود بريطانيا ، وإعلان حقوق الإنسان .

على أثر هذين التصريحين تألفت لجنة مكونة من سبعة أعضاء من

أحرار العرب فتقدموا بمذكرة إلى الحكومة البريطانية يستوضحونها ويطلبون تحديد ما جرى بين الشريف حسين ومك ماهون فجاءهم الرد بما يأتى :

نص العهد البريطانى للسوريين السبعة :

١ — إن حكومة جلالة الملك ترغب فى أن تكون عامة الشعوب التى تتكلم اللغة العربية منقذة من السلطة التركية ، وأن تعيش فيما بعد وعليها الحكومة التى ترغب فيها .

٢ — إن بعض البلاد العربية إما كانت تتمتع باستقلالها التام منذ مدة أو حصلت عليه الآن وهو استقلال اعترفت به انكلترة اعترافاً تاماً وهذا يكون شأنها أيضاً مع البلاد التى تحصل على استقلالها من الآن حتى نهاية الحرب .

٣ — إن سائر البلاد العربية هى الآن خاضعة للترك أو تحتلها جيوش الحلفاء فحكومة جلالة الملك تأمل ، ولها الثقة أن شعوب هذه البلاد تحصل أيضاً على حريتها واستقلالها وأن يتخذ بشأنها عند انتهاء الحرب قرار يتفق مع رغابها .

٤ — إن حكومة جلالته تعتقد أن العوائق والصعوبات المقدرة التى تقف فى سبيل أحياء هذه الشعوب سيتغلب عليها تغلباً ناجحاً وهى تعد بكل مساعدة لمن يسعى فى إزالتها ومستعدة لأن تنظر فى أى خطة لعمل مشترك يلتئم مع الحركات العسكرية الحاضرة ، ويتفق مع المبادئ السياسية لبريطانيا وحلفائها .

وفى ٧ نوفمبر عام ١٩١٨ صدر تصريح مشترك يبين الهدف الذى من أجله حاربت فرنسا وبريطانيا فى الشرق وهذا نصه :

إن السبب الذى من أجله حاربت فرنسا وانكلترة فى الشرق تلك

الحرب التى أهاجتها مطامع الألمان إنما هو لتحرر الشعوب التى رزحت أجيالا طوالا تحت مظالم الترك تحريراً تاماً نهائيا وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالى الوطنيين لها اختياراً حراً ، ولقد أجمعت فرنسا وانكلترة على أن تؤيد ذلك بأن تشجعا وتعينا على إقامة هذه الحكومات والإدارات الوطنية فى سوريا والعراق : المنطقتين اللتين أتم الحلفاء تحريرهما ، وفى الأرض التى ما زالوا يجاهدون فى تحريرها ، وأن تساعدا هذه الهيئات وتعترف بها عندما تؤسس فعلا ، وليس من غرض لفرنسا وانكلترة أن تنزلا أهالى هذه المناطق إلى الحكم الذى تريدانه ، ولكن همهما الوحيد أن يتحقق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والإدارات التى يختارها الأهلون من ذات أنفسهم وأن تضمنا عدلا منزهاً يساوى بين الجميع ويسهل عليهم ترقية الأمور الاقتصادية فى البلاد بإحياء مواهب الأهالى الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ووضع حد للخلاف القديم الذى قضت به السياسة التركية تلك الأغراض التى ترمى إليها الحكومتان المتحالفتان فى هذه الأقطار المحررة .

اصطدام العرب بالحلفاء

(مؤتمر باريس)

بالرغم من هذه الوعود المنفردة والمشتركة فإن الحلفاء أخذوا يسيرون على الأسس التى جاء بها اتفاق سايكس — بيكو ، والصهيونية تكيد من وراء ذلك وتحث الحلفاء على تحقيقها بغية تحقيق وعد بلفور أما العرب فقد اطمأنوا إلى هذه الوعود وانصرف الأمير فيصل يرتب أموره فى دمشق وفى البلاد السورية . وكانت الجيوش البريطانية تحتل

البلاد العربية وحدها مع الجيوش العربية ، وبينما كان المسئولون ينتظرون ما يأتى به مؤتمر الصلح فوجئ العرب فى دمشق بنزول الجيوش الفرنسية فى السواحل السورية فلما احتجت حكومة دمشق العربية على ذلك أجابها البريطانيون أن هذا أمر مؤقت اقتضته الحركات العسكرية ولا يعنى اتفاق سايكس — بيكو .

وذهب الأمير فيصل إلى باريس ليحضر مؤتمر الصلح بتكليف من والده الملك حسين باعتباره أحد الحلفاء . ولكنه خاب ظنه إذ وجد تعبئة منظمة من فرنسا وانكلترة والصهيونيين لإحباط مساعيه وعدم الاعتراف به ولكن ما لبث الأمر قليلا حتى اعترف به ممثلا لحكومة الحجاز ، فبسط الأمير مطالب العرب . وكان يسود المؤتمر مثالية الرئيس ولسن فى حق تقرير الشعوب مصيرها وفى عباراته التى يكررها دائماً : إن تسوية أى قضية من القضايا سواء أكانت دولية أم سياسية أم اقتصادية يجب ألا تستند إلى المنافع المادية التى تؤدى إلى استغلال الغير .

غير أن هذا المؤتمر ما لبث أن وضع حق تقرير مصير الشعوب العربية التى انفصلت عن تركيا فى المادة (١٩) من مقرراته والتى كان مايخص البلاد العربية منها قد تبلور فيما بعد فى هذه الفقرة من المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم وهى : « وهناك شعوب معينة كانت تابعة للدولة التركية قد وصلت من التطور درجة تضعها فى مصاف الأمم التى يمكن اعتبارها مستقلة مبدئياً ، على شرط أن تقبل مشورة ومساعدة دولة منتدبة فى تدوير شئونها وتستمر حتى تصل إلى مكانة تستطيع بها الاستغناء عن هذه المشورة والمساعدة وأن تراعى رغبة هذه الشعوب فى اختيار الدولة المنتدبة » .

لقد كان الصراع عنيفا فى مؤتمر باريس بين فرنسا وانكلترة صاحبتى اتفاق سايكس — بيكو من جهة وبين منافستهما إيطاليا وصاحب الحق

الشرعى ملك الحجاز من جهة أخرى ، وكانت كل من فرنسا وانكلترة تحاولان التفاهم على تعيين الحدود وتوضيحها لتحقيق رغبة كل واحدة منها ورأت انكلترة أن هذا الاتفاق فى وضعه الحالى مضر فى مصالحها فكان ماكان من ارجاع أحواض النفط فى لواء الموصل إليها ، ومن ثم السكوت عن تدويل فلسطين حيث انتهى الأمر فيما بعد بوضعها تحت بشرط مراعاة تنفيذ وعد بلفور .

ومن نتائج هذا المؤتمر تأليف لجنة تحقيق أو استفتاء لمعرفة رغبات أهل البلاد العربية . وقد رجعت هذه اللجنة بتقرير مفصل خلاصته : عدم التوصية بالانتداب الفرنسى على سوريا ، والمحافظة على وحدة سوريا وفى ضمنها فلسطين مع إعطاء لبنان حكما ذاتيا فى نطاق الوحدة السورية وأن يبقى العراق قطراً واحداً ، وأن يقوم حكم ملكى دستورى فى كل من الانتداب البريطانى العراق وسوريا .

ولكن معالم هذه اللجنة طمست ولا شك فى أن ذلك من فعائل اليهود وتدبيرهم . رأى الأمير فيصل هذا الاصطراع وأنه لا مناص من التفاهم مع فرنسا . فتم اتفاق بينه وبين كليمنصو اشتركت فى المشورة فيه بريطانيا : فلما عرضه على المسئولين فى سوريا رفضوه .

إعلان الاستقلال ومبايعة الملك فيصل

وما ترتب على ذلك

أدرك العرب نوايا الغرب وتأكد لهم أن اتفاق سايكس — بيكو سوف تدعمه الصهيونية فى أنحاء العالم وسوف تعبئ له الصحافة والمحافل السياسية حتى تحققه فاجتمع المؤتمر السورى العام فى ٧ مارس عام ١٩٢٠ وأعلن استقلال سوريا جميعها بما فيها فلسطين ولبنان وأن يكون شكل الحكم فيها ملكيا دستوريا واحتفظ القرار للبنان بحكم ذاتى ضمن

الدولة السورية . ثم المناداة بالأمير فيصل ملكا على سوريا . واجتمع زعماء العراق وأعلنوا استقلال العراق والمناداة بالأمير عبد الله ملكا عليه وفى اليوم الثامن من هذا الشهر توج فيصل بتاج الملك السورى . قرر العرب هذه المقررات الخطيرة وجيوش بريطانيا تحتل العراق وفلسطين وجيوش فرنسا تحتل السواحل السورية وتتقدم فى كل لحظة إلى الداخل . فأغضب هذا القرار الحلفاء فاجتمع مجلسهم الأعلى فى سان ريمو من أعمال إيطاليا فى ٢٥ نيسان ١٩٢٠ وأعلن :

١ — وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى بدولتين منفصلتين .

٢ — وضع العراق تحت الانتداب البريطانى .

٣ — وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى مع تنفيذ وعد بلفور .

فكانت هذه المقررات مفاجأة مفجعة أملاه عملاق الظلم وجبروت الاستعمار على أمة وديعة تطالب حقها وتستنجز وعداً طالما أعطى لها .

الحرب بين فرنسا والعرب

وخروج فيصل من الشام

أخذت فرنسا تزحف على داخل سوريا وتبرر زحفها على أساس أنها دولة منتدبة أو أنها دولة فرضت نفسها فرضاً دون رغبة أهل البلاد . وكانت جيوشها مسلحة تسليحاً كاملا وبينما كانت جيوشها ترتد متقهقرة أمام الكماليين المسلحين كانت جيوشها تتقدم إلى الأمام بسلاح يفوق سلاح الجيوش العربية . وكان العرب يستندون إلى العهود وفرنسا تستند إلى القوة .

وبينما كان الملك فيصل يتأهب للرجوع إلى باريس ليحضر مؤتمر الصلح وليبسط شئون البلاد أبلغه الجنرال غورو أنه لا يوافق على سفره

ما لم تحل المسألة السورية . وفى يوم ١٤ تموز ١٩٢٠ أنذره إنذاراً محدداً فيه المطاليب الآتية :

١ — وضع الخط الحديدى بين رياق وحلب تحت الإدارة الفرنسية ومراقبتها .

٢ — استغلال فرنسا لمحطات الخط الحديدى فى حمص، حماة وحلب .

٣ — تداول العملة السورية التى أصدرتها فرنسا .

٤ — قبول الانتداب الفرنسى على سوريا .

٥ — معاقبة عصابات الثوار .

٦ — تنفيذ هذه المطالب خلال أربعة أيام وإلا نفذت بالقوة

عرض الملك هذا الإنذار المفاجىء على مجلس وزرائه فدرسه ووجد أن البلاد غير قادرة على الدفاع إذا استعمل الفرنسيون القوة . وأن هذه المطالب ما هى إلا وسيلة للقضاء على استقلالها ، ومع ذلك قبل الإنذار رسمياً غير أن الفرنسيين تقدموا بحجة أن الجواب جاءهم متأخراً وكيف يمكن أن يتأخر وقد أبرق من دمشق إلى بيروت ولكن فرنسا شأنها فى كل أعمالها أن تركب متن الظلم والخيانة وتاريخها مع الجزائر وتونس معروف .

تقدمت جيوشها فلم ير العرب بداً من صدها بعد أن فهموا نواياها لكن سلاحها القوى المتفوق حصد الأحرار واستشهد وزير الحربية فى موقعة ميسلون وتم احتلال دمشق . وطلب غورو من فيصل أن يغادر البلاد فى أسرع ما يمكن ، فاضطر الملك العربى أن يغادر البلاد إلى أوربا حيث حليفته فى السلاح بريطانيا ليبسط لها أفعال الحليفة الثانية فرنسا وفى معاهدة الصلح التى تمت فى سيفر فى ١٠ أغسطس ١٩٢٠ أيدت المواد ٩٤ — ٩٨ منها ما جاء فى المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم تم وضع سوريا تحت الانتداب واعتبارها دولة مستقلة مبدئياً .

وبعد انهيار الحكومة الروطنية قسمت فرنسا سوريا دويلات وبدأت أعمال التخريب الاجتماعى والسياسى والاقتصادى فى هذا البلد الأمين .

الانتداب على العراق

مبايعة الملك فيصل وتتويجه ملكا على العراق

وثبت إنكلترة على العراق عند إعلان تركيا الحرب عام ١٩١٤ وبعد مساجلة فى المواقع بينها وبين جيوش الدولة العثمانية استقرت جيوش بريطانيا فى البصرة . واتخذتها قاعدة لحركاتها فى هذا القطر العربى وظلت الحرب سجالا بين جيوش الانجليز وجيوش الترك خسر فيها الانجليز والترك عدداً عظيما من الضحايا والمعدات . إلى أن انتهى الأمر باحتلال الموصل على أثر إعلان الهدنة .

وهكذا احتل الانجليز العراق وحكموه حكما مباشراً ، والعراق جزء من البلاد العربية المتيقظة المتطلعة إلى الاستقلال لعب أبناؤه دورهم المهم فى الثورة العربية الكبرى إذ كانوا يؤلفون العدد الأكبر من ضباط العرب فى الجيش العثمانى .

زد على ذلك فإن المنتمين إلى جمعية الإصلاح وغيرها من الجمعيات قد أدوا نصيبهم فى هذه الحركة .

وبينما كان العراق يتطلع إلى إعلان استقلال الدولة العربية إذ يسمع بالانتداب يفرض عليه فرضاً دون أخذ رأيه . وإذا به يقيد بالسلاسل وبعد أن كان العراق سمع من منشور الجنرال مود يوم ١٩ آذار سنة ١٩١٧ ألفاظ الحرية والتحرير إذ به يرى الانجليز يسدرون فى غلوائهم ويعلنون الانتداب فانتفض العراق تلك الانتفاضة الهائلة . وقبل أن نذكر طرفاً منها ومن نتائجها نثبت هنا منشور الجنرال مود لقيمته التاريخية قال :

يا أهالى ولاية بغداد :

إنى باسم مليكى المعظم واسم شعوبه التى يحكم عليها أوجه إليكم الخطاب الآتى :

إن الغرض من معاركنا الحربية هو دحر العدو وإخراجه من هذه الأصقاع ، فإتماماً لهذه المهمة وجهت إلى السلطة المطلقة على جميع الأطراف التى تقاتل فيها جنودنا .

إن جيوشنا لم تدخل مدنكم وأراضيكم بصفتهم قاهرين أو أعداء بل بصفتهم محررين فقد أخضع مواطنوكم منذ أيام هولاكو لمظالم الغرباء فخربت قصوركم وذوت حدائقكم وفنى أشخاصكم وأسلافكم من جور الاسترقاق ، لقد سيق أبناؤكم إلى حروب لم ينشدوها وجروكم القوم الظالمة من ثروتكم وبددوها فى أصقاع شاسعة . تكلم الترك من أيام مدحت باشا على الاصلاح ، أفليس دثور العراق واقفاره برهاناً على بطلان هذه المواعيد .

وأنها ليست أمنية جلالة مليكى المعظم وأمنية شعوبه فقط ، بل هى أمنية الأمم العظمى المتحالفة معها حكومة جلالته أن تعودوا كما فى السابق . وقد كانت أراضيكم مخصبة وكان العالم يتغذى بألبان آداب أجدادكم وعلومهم وصناعتهم وقد كانت بغداد إحدى غرائب الدنيا ، لقد أنيط قومكم بممتلكات جلالة مليكى المعظم بعروة المصالح الوثقى ، فقد تبادل تجار بغداد وتجار بريطانيا من مئتى سنة المنفعة والصداقة .

أما الألمان والأتراك الذين نهبوكم أنتم وذويكم فقد اتخذوا بغداد مدة عشرين سنة مركزاً يهجمون منه على نفوذ البريطانيين وحلفائهم فى إيران والبلاد العربية ولذلك لم تستطع الحكومة البريطانية السكوت عما يحدث فى وطنكم حاضراً أو مستقبلا ولا تتسامح قياماً بواجب مصلحة الشعوب البريطانية ومصلحة حلفائها فى أن يرتكب الترك ماارتكبوه مرة ثانية فى بغداد .

ويجب عليكم ياأهل بغداد يامن جئنا نحميكم من الظلم والغزو ونضمن حرية تجارتكم ، ويامن ستنالون مايستوجب أدق اهتمام الحكومة البريطانية أن تعلموا أن هذه الحكومة لن تفرض عليكم أنظمة أجنبية عنكم فأمنيتها الوحيدة أن تحقق ما تطمح إليه نفوس فلاسفتكم وكتابكم مرة أخرى ، ولسوف يسعد أهالى بغداد ويتمتعون بالغنى المادى والأدبى بفضل نظامات توافق قوانينهم المقدسة وأطماعهم القومية ، لقد طرد العرب فى الحجاز الترك والألمان الذين بغوا عليهم ونادوا بعظمة الشريف حسين ملكا عليهم ، وعظمته يحكم مستقلا حراً وهو متحالف مع الأمم التى تحارب دولتى تركيا وألمانيا وهذا شأن أشراف العرب وأمراء نجد والكويت وعسير . لقد ذهب كثيرون من أشراف العرب ضحية فى سبيل الحرية على أيدى أولئك الحكام الغرباء الذين ظلموهم وانكلترة وحلفاؤها مصممون على ألا تذهب دماء هؤلاء الأبطال هدرا ، وأمنية انكلترة وحلفاؤها أن تسمو الأمة العربية مرة أخرى . وتستعيد عظمتها ومجدها ، وأن تعمل لإدراك هذه الأمنية متحدة مثقفة .

ياأهل بغداد تذكروا أنكم تألمتم ٢٦ جيلا أذاكم الظلمة والغرباء الذين سعوا دائماً إلى الإيقاع بين البيت ورب البيت كى يستفيدوا من شقاقكم فهذه السياسة مكروهة عند بريطانيا وحلفائها لأنها إغراء بالعداوة ولا يستقيم معها حال ولا يستقر معها سلام وأنا مأمور بأن أدعوكم بواسطة أشرافكم وشيوخكم الطاعنين فى السن وممثليكم إلى الاشتراك فى إدارة مصالحكم الملكية لمعاضدة ممثلى بريطانيا السياسيين المرافقين للجيش كما تنضمون إلى ذوى رحمكم شمالا وشرقاً وجنوباً وغرباً فى تحقيق أطماعكم القومية .

صدر من مركز رئاسة الجيش البريطانى ببغداد فى ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٣٥ الموافق ١٩ مارس سنه ١٩١٧ .

ظل الإنجليز رغم وعودهم يديرون الحكم فى العراق بأيديهم والبلاد تنتظر حكما وطنياً مستقلا حراً فى أعماله وإدارة شئون بلاده حتى أعلن الانتداب على العراق فى مؤتمر سان ريمو وتم تأييده فى مؤتمر سيفر فهاج العراق من أقصاه إلى أقصاه وأذاعت جمعية العهد (التى ألفها الضباط العرب فى الجيش العثمانى قبل الحرب والتى كان جل أعضائها من الضباط العراقيين) بياناً ندد فيه بهذه المقررات ودعت العراق إلى مقابلة هذا العمل بالقوة وكانت قد أنشئت جمعية سرية عرفت باسم جمعية حرس الاستقلال فى تشرين الثانى من عام ١٩١٩ غايتها استقلال العراق استقلالا تاماً دون الحاجة إلى مساعدة بريطانيا ثم تم الاتفاق بين جمعيتى العهد والحرس وتشكلت منهما لجنة مشتركة لتوحيد الجهود . وكان العراق يتأجج ويتأهب فالتهبت الثورة فى كل مكان من العراق ووقعت الحوادث الدموية التى أبانت عن قوة الثورة وخسر الإنجليز فيها خسائر فادحة . فرجعوا إلى الصواب وبدءوا يفكرون فى تأليف حكومة وطنية تدير البلاد باستشارة البريطانيين ومهدت بريطانيا لذلك لإقامة حكم ملكى دستورى . وكانت نتيجة مؤتمر القاهرة الذى دعا إليه تشرشل فى مارس ١٩٢١ دعوة الأمير فيصل إلى العراق وأجرى استفتاء شعبى نال به الأمير ما يكاد أن يكون اجماعاً فقد كانت النتيجة بجانبه بنسبة (٩٧٪) وفى ٢٣ أغسطس من عام ١٩٢١ توج فيصل ملكا على العراق فبدأ العراق حياة جديدة فى اصطراع بين الأمانى الوطنية ومطالب الإنجليز . وفى رغبة الملك والشعب فى تحديد الصلة بين العراق وبريطانيا وضعت نصوص معاهدة تم عقدها فى ١٠ تشرين الأول من عام ١٩٢٢ على أن يتم تنفيذها بعد مصادقة المجلس التأسيسى عليها ، وقد حددت هذه المعاهدة صلة العراق ببريطانيا فى قبول استشارة الانكليز فى الأمور المالية والخارجية وألحقت بها اتفاقات قضائية وعسكرية ومالية والغرض منها تأمين مكانة

الإنجليز فى البلاد . وعورضت هذه المعاهدة معارضة شديدة لما فيها من المخالفة لسيادة البلاد . ولكن المجلس التأسيسى صادق عليها طمعاً فى وضع حد للانتداب وتمشياً مع سياسة خذ واعط . ثم انصرف المجلس التأسيسى لوضع دستور البلاد على أسس ديمقراطية سليمة وضحت فيه حقوق الشعب والملك وجرت فيه تعديلات أخرى أهمها أنه أصبح للملك حق إقالة الوزارة بعد أن كانت تبقى فى الحكم ما دامت متمتعة بثقة الأكثرية .

بعد استقرار البلاد الدستورى بدأت صلات العراق تتحدد فى كل فرصة بينه وبين بريطانيا حتى كانت معاهدة ١٩٣٠ التى ارتكزت على أساس أن بريطانيا ترشح العراق للدخول فى عصبة الأمم فى عام ١٩٣٢ دولة مستقلة ذات سيادة . وتقوم بمحالفة بين البلدين تستمر خمسة وعشرين عاماً ، تسوى فيها مصالح الطرفين بطريق التشاور وتبادل الرأى ، وأن تتخلى بريطانيا عن جميع المسئوليات الملقاة على عاتق الدولة المنتدبة وتنتقل المسئوليات إلى ملك العراق . وفرضت المعاهدة مساعدات متبادلة من الطرفين قوبلت بمعارضة شديدة فى البلاد ومع كل هذه المعارضة صودق عليها .

أصبح العراق يمارس حكم الوطنى المستقل بعد أن دخل عصبة الأمم عام ١٩٣٢ وزال عنه الانتداب وهو فى سبيل التخلص من هذه المعاهدة بعد انتهاء مدتها ، إذ أصبح مفعولها لا وجود له بعد أن أصبح العراق عضواً فى هيئة الأمم المتحدة . ومشى العراق شوطاً واسعاً فى ميدان الثقافة والعمران وقد وضع الخطط لإنجاز مشروعات ضخمة اقتصادية واجتماعية وبدأ فى تنفيذها فعلا .

شرق الأردن

كان اتفاق سايكس — بيكو مزق البلاد العربية شر ممزق وكانت فلسطين شلواً من هذه الأشلاء التى كان يجب أن تكون دولية ، أى توضع

تحت إدارة دولية ، ولكن اليهود سعوا سعياً حثيثاً لإبطال هذا النص وتم وضعها تحت الانتداب الإنجليزى ليتموا الصفقة ، وكانت أراضى شرق الأردن بعيدة عن هذا التدويل ، وبعيدة فى نظر الإنجليز أن تكون تحت انتداب الفرنسيين ، فلما حلّ بها الأمير عبد الله كى يثأر لفيصل من فرنسا نبطت فكرة وضعها فى مؤتمر القاهرة الذى دعا إليه تشرشل فى شهر مارس من عام ١٩٢١ وتم تكوين الإمارة على أن يكون عبد الله أميراً عليها وأن تعينه بريطانيا بنفقات هذه الإمارة الصغيرة ، ومشت تتقدم حتى أعلنت الملكية وبويع عبد الله ملكا عليها . لم يشمل وعد بلفور هذه المنطقة العربية فظلت بعيدة عن أخطبوطه فلما نفذ الإنجليز والصهيونيون خطتهم فى إقامة إسرائيل أضيف إليها القسم العربى الذى قضى به التقسيم فازدادت هذه المملكة الصغيرة اتساعاً ولا تزال تصطرع مع هذه الدولة النابطة على حدودها وحدود البلاد العربية الأخرى ولا يزال الاصطراع قائماً والعرب الذين تركوا ديارهم لا يزالون مشردين بالعراء يفتك بهم أعداء الإنسانية الجوع والمرض والجهل وضمير أوربا وأمريكا جامد لا يتحرك .

بعض الحركات الاستقلالية والثورات

صارعت فلسطين صراعاً عنيفاً أمام ذهب اليهود وكيدهم وسياسة المستعمر وقوى الغرب التى عبأتها إسرائيل ، وكانت هذه الثورات تهدأ بمائدة مستديرة تعقد بين الطرفين ، ولجان تؤلف لتحقيق هذه القضايا ، وخطط ومشروعات توضع ، ولكنها كانت كلها مخدراً حتى إذا حل وقت انتهاء الانتداب كان اليهود على استعداد تام لاستلام أقسامهم التى وضعت فى الخطط المرسومة ، ووقفت الجيوش العربية تنظر إلى هذا البلد تستقطع دياره داراً بعد دار ، والأسر العربية تتراكض من الذعر

والخوف والفزع الذى ألقاه اليهود فى قلوبهم حتى خرجوا من ديارهم إلى العراء وهكذا نبتت مأساة لا تزال فصولها يرفع عنها الستار فصلا بعد فصل .

سوريا ولبنان

لم تهدأ سوريا منذ أن نزلت جيوش فرنسا فى سواحلها وزحفت على مدنها تتغلغل فى البلاد حتى وقعت واقعة ميسلون وقضى على حكومة الملك فيصل . ظلت هذه الواقعة الغادرة تتردد فى سمع العالم العربى وفى قلوب أبناء البلاد حتى ثارت سوريا لنفسها فى ثورتها الكبرى عامى ١٩٢٥ — ١٩٢٦ . ووقفت البلاد السورية يعضدها العالم العربى وقفة مشرفة فى وجه الظلم ، فان الفرنسيين أخذوا فى تنفيذ خططهم لقتل الروح الوطنية وإفقار البلاد وبث التفرقة بين أبناء البلد الواحد وإيجاد الشحناء وتخويف البلاد من جيرانها وتنازلها عن لواء الاسكندرونة الذى يعتبر جزءاً من البلاد لتركيا وكم مرة خربت مدينة دمشق بالمدافع والطائرات وهجمت البيوت على العجزة والنساء والأطفال وما كانوا يظهرونه من المسايرة للوطنيين كان ستاراً ينفذون وراءه خططهم وظلوا على هذه الحال فى صراع مستمر وتفقير وتجويع وإعانة على إبقاء الجهل ومحاربة التعليم حتى وقعت الحرب العالمية الثانية التى انهارت بها هذه الدولة المستعمرة .

وبالرغم من انهيارها أخذت قواتها تحاول القضاء على كل فكرة تدعو إلى تحرير البلاد وشنت غارة شعواء على دمشق تسندها الطيارات والدبابات وقنابل المدافع الثقيلة تتساقط على الدور والشوارع . وتدخلت الحكومة البريطانية فى الأمر وأيدتها أمريكا ، وقامت البلاد العربية وقعدت لهذه المأساة وكان دور الجامعة العربية دوراً مهماً فكان

من نتيجة ذلك كله إيقاف نيران الفرنسيين وإجبارهم على الجلاء عن البلاد وقد تم الجلاء عن سوريا فى يوم ١٥ نيسان واحتفل به واعتبر عيداً قومياً فى يوم ١٧ نيسان من عام ١٩٤٦ كما تم الجلاء عن لبنان فى العام نفسه فى ٣١ من شهر كانون الأول واعتبر هذا اليوم أيضاً عيداً قومياً .

مصر

لمصر الحظ الأكبر فى اليقظة الفكرية والسياسية فى مفتتح القرن التاسع عشر ، لقد حفظ الأزهر تراث العرب والإسلام فكان مصدر غذاء لهذه اليقظة أعان مصر على أن تتبوأ مكانة مرموقة فى العالم العربى ، فإن البعوث التى أرسلت إلى أوربا أيام محمد على باشا كانت كلها من هذا الجامع فلما أتمت دراستها عادت تحمل ثقافة الغرب إلى جانب الثقافة الإسلامية فبدأت نهضة عربية أدبية وعلمية كان لها أكبر الأثر فى حركات الشرق العربى والإسلامى . زد على ذلك فان مصر صارت ملجأ الأحرار من العرب يبثون آراءهم فى محافلها وصحفها ومنها ينشرون للعالم ما يريدون ، ولكن مصر هذه منيت كما منيت كل دولة عربية فى هذا الشرق العربى باعتداء عنيف فقد نزلت جيوش بريطانيا فى الاسكندرية عام ١٨٨٢ فكان بدء صراع بين قوة تحاول إخماد كل حركة فكرية وصناعية وهى قوة المستعمر وبين قوة تريد أن تنهض وتتحرر وهى قوة أهل البلاد وقد انبعث فى هذا الوادى أحرار قارعوا الظلم وأيقظوا الأمة منهم أحمد عرابى فى الجيش ، وجمال الدين ومحمد عبده فى السياسة والاجتماع ومصطفى كامل وسعد زغلول ومصطفى النحاس فى السياسة وكل هؤلاء كانوا حرباً على هذا الاحتلال الذى لم يجد له العالم الحر معنى فى قاموس حقوق الإنسان .

احتلت بريطانيا مصر من عام ١٨٨٢ وظلت تتصرف كيفما تشاء إلى أن أعلنت الحرب العالمية الأولى فأعلنت بريطانيا حمايتها على مصر فى ١٨ كانون الأول عام ١٩١٤ وقطعت بهذا الإعلان صلة مصر بالدولة العثمانية وخلعت الخديوى وأقامت آخر مقامه أعطته لقب « السلطان » كان الحكم الفعلى فى مصر للمندوب السامى وكانت هذه الحالة لا ترضى أحرار المصريين . لقد لعب الحزب الوطنى الذى ألفه مصطفى كامل دوراً مهماً فى إيقاظ النفوس وإسماع صوت مصر للعالم ثائراً على هذا الاعتداء وقد لان الإنجليز فى بعض الأحيان وأعطوا شيئاً من الحقوق لمصر ولكنها منح القوى الجبار غليظ القلب إلى الأعزل صاحب الحق ، فلما وضعت الحرب أوزارها وهدأت أعصاب الأمم المتوترة فتحت مصر عينيها على وضع غير طبيعى ، فإن مبادئ ولسن قد ملأت سمع العالم وأن أسباب الحرية والدولة كاملة متوفرة فى مصر فلماذا لا تستقل ولماذا يبقى هذا الوضع ؟

برز سعد زغلول للوجود فألف وفداً باسم الشعب المصرى وذهب إلى المندوب السامى يبلغه مطالب مصر وأمانيها فكانت نقطة بدء لصراع عنيف . انتهت باعتقال سعد وعدد كبير من إخوانه الأحرار وأرسلتهم إلى مالطة فى ٨ مارت من عام ١٩١٩ فثارت البلاد من أقصاها ، واضطرت انجلترة إلى تصريح ٢٨ شباط عام ١٩٢٢ وفيه إلغاء الحماية واعتبار مصر دولة مستقلة ذات سيادة واتخذ سلطان مصر لنفسه لقب الملك وأعلن دستور المملكة فى ١٩ نيسان ١٩٢٣ ورغم هذا الوضع الواضح فإن بريطانيا جاثمة فى صدر القناة تتدخل فى شئون مصر تدخلا لم يرض الأحرار ، وظل الصراع مستمراً فى طلب الجلاء عن مصر والسودان وهو طلب لا شك فى عدالته ، كانت تنشأ مفاوضات بين

مصر وبريطانيا ، وكانت هذه المناوضات شبه مادة مخدرة تفثأ ثورات الوطنيين ولكن إلى حين .

فكم مرة وعدت بريطانيا فأخلفت ، وكم فاوضت فراوغت ، ومصر صابرة مثابرة إلى أن عقدت بينهما معاهدة ١٩٣٦ حددت فيها العلاقات بين مصر وبريطانيا على أن تستمر عشرين عاماً ، وفيها ألغيت الامتيازات الأجنبية التى كلفت مصر جهداً وخلقا ، فقد استغلها الأجانب استغلالا فظيعاً خارجا على حدود الإنسانية ، وفى هذه المعاهدة الاعتراف بسيادة مصر ، وإنهاء الاحتلال العسكرى ، وهذه المعاهدة على مكانتها لم تجد فيها بريطانيا إلا حبراً على ورق عندما تريد أن تملى إرادتها فيما يهم مصالح الإمبراطورية ، ورغم من إلغاء مصر لها فإن بريطانيا لا تزال متمسكة بها ، وقد زالت الملكية من مصر وأعلن النظام الجمهورى ، ولا تزال المفاوضات مستمرة متقطعة ، للخلاص من هذا الاحتلال الجاثم على صدر القناة ، إن مصر دولة مكتملة بكل معانى الاكتمال لدولة فى القرن العشرين ، تقدمت شوطاً عظيما فى الحضارة والثقافة وهى البلد العربى الوحيد الذى يملك ثلاث جامعات وفى سبيل إنشاء جامعة رابعة ، عدا المعاهد العلمية العالية ، ودوائر البحوث ومختبرات التجارب ، ولها وضعها الاقتصادى المنتظم ومكانة دولية مرموقة وعدد من السكان يجعلها فى عداد الدول الكبيرة .

شبه الجزيرة العربية

وفى شبه الجزيرة العربية استقر الملك لابن سعود فى ضم الحجاز وعسير إلى سلطنته فأعلن النظام الملكى وتسمت مملكته باسم المملكة العربية السعودية ، ونبطت آبار البترول فى ديار نجد فاستطاع أن يدخل

أساليب الحضارة بصورة واسعة ، ويبشر الثقافة بصورة أوسع ، ويعنى فى إيجاد جيش مدرب ، ويحضر البدو ويجعل للملكة نظاماً مستقراً على أسس المركزية فهو يعين الولاة وهو الذى يوجههم فى أعمالهم ويسير فى حكمه على أسس الشريعة الإسلامية والقرآن الكريم ، فالأمن منتشر فى البلاد والجرائم قلما يسمع عنها ، وفى هذا السير الحثيث فى المعارف وإدخال وسائل المدنية والحضارة أصبحت المملكة العربية السعودية تتطلع إلى مستقبل يكون لها فيه شأن .

والمملكة اليمنية المتوكلية قد خرجت عن عزلتها وأصبحت تبعث البعوث للدراسة فى الشرق والغرب وتعنى بنشر الثقافة وإدخال أساليب الحضارة ، ولكنها لا تزال فى صراع دائم بينها وبين المستعمر ، على أن هذا الصراع يلقى فى كل يوم دروساً على اليمن للاسراع فى استكمال العدة والعدد وتهيئة أجيال قادرة على رد العدوان واسترجاع ما اقتطع منها إلى حضيرة البلاد .

جامعة الدول العربية

هى أمنية كانت تتردد على فم كل من يشعر بحق هذه البلاد فى الوجود ، ويقرأ أمجاد آبائه الأولين ويلمح فيها مواطن العزة والقوة والتكوين ، ثم يرى كيف أصبحت الأمم تطمع فى طمس معالم هذه الأمجاد والاستيلاء على موارد الرزق ومصادرها فى بلاده ، ذلك للانفراد الذى بعثته ظروف الماضى وتركته يتقوى من حيث يضعف ، فالفردية القوية فى نفسها أضعاف المجموعة . كان شعور أبناء هذه البلاد يزداد يوماً بعد يوم ويقوى فى إيجاد رابطة فيها معنى القوة وفيها معنى العزة التى تحافظ على كرامة الحرية ، الصحف تنشر ، والخطيب يخطب ، والمؤلف يؤلف ، وإنك لا تمر فى بحث يتناول قضايا الشرق العربى إلا تعرض

الوحدة والاتحاد ، لما فى ذلك من خلاص هذه البلاد من أطماع الطامعين وأخطبوط المستعمرين .

إن التفكير فى تكوين جامعة الدول العربية وحده فيه إجابة هذه الرغبة فكيف بها إذا التأمت وبدأت أعمالها ، لقد أثبتت الحروب الحديثة أن أية أمة من الأمم لا تستطيع وحدها أن تقوم بحرب لاسترداد حق ، أو دفاع عن حق ودفع لباطل ، وقد يسرى هذا الرأى على مشروعات السلم .

إن تأريخ الحروب الحديثة شاهد عدل على تكوين مجموعات متباينة الأجناس موحدة المصالح تترابط فيما بينها ، وتتفاهم على هدف معين بصوت مصالحها مجتمعة ، فكيف بدول الجامعة ؟

إن لهذه البلاد تأريخاً تلتقى فيها أمجادها ، ولها ثقافة تكاد تكون موحدة ، ولها روابط جغرافية ومصالح اقتصادية ، ولغة واحدة ووشائج اجتماعية تميزها عن بقية الأمم مما يسهل عليها الألفة والاجتماع ، زد على ذلك رابطة الدم والعقيدة ، فجامعة الدول العربية تكاد تكون فى مجموعها لها مقومات الدولة الواحدة ، ولم لا ؟ ألم تكن هذه الدول فى يوم من الأيام مجتمعة يظللها علم واحد وجيش واحد ومالية واحدة ؟ أفليس من السهل عليها أن توحد جهودها لخير الإنسانية ولصالح بلادها ؟ إن فى هذه الجامعة من عناصر قوى الاجتماع والسياسة ما لم يتوفر فى أية مجموعة إقليمية أخرى ، ولو استطيع التوسع لحذفت هذه الصفة « صفة المجموعة الإقليمية » ولأطلقت عليها ماهو أكثر دلالة على وحدة لا تنفصم عراها .

لقد تحقق إذن شطر عظيم من هذه الرغبة التى كان يفيض بها شعور كل مخلص لهذه البلاد ، ووجدت الأمم الأجنبية فى تكوينها خيراً عظيما للإنسانية والسلم العالمى ، إننى واثق جد الثقة أنه كلما تقدمت هذه الجامعة من ذروة القوة قوى الأمل باستمرار السلم فى هذا الشرق وانصرفت

عنه مطامع الدول الجشعة المتطاحنة على الأسواق والمواد الأولية والنقاط الستراتيجية . فالدول العربية مجتمعة تستطيع أن تحافظ على التوازن الدولى ، وتستطيع أن تملى سياسة مثلى على العالم .

وموجز القول : إن القصد من تكوين الجامعة قصد شريف ، ويهدف هذا القصد : فى حفظ السلام فى الشرق الأدنى ، ورعاية مصالح هذه الدول المؤلفة منها الجامعة ، ثم حفظ التوازن الدولى .

إن تكوين الجامعة دليل على صحة يقظة العرب ونضوج هذه اليقظة ، وكلما اتسع أفق فى هذه الناحية اشتد الترابط وتقاربت الآراء وتوحدت الجهود .

بدأت فكرة الجامعة مضببة فى أذهان الناس وأمنية يتمنونها ، ثم ما لبثت أن اتضحت خطوطها وبانت معالمها .

فقد دعت الحكومة المصرية فى منتصف أغسطس عام ١٩٤٣ كلا من سوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية والعراق واليمن وشرق الأردن إلى إيفاد مندوبين عنها لتبادل الآراء فى موضوع الوحدة العربية فكانت هذه أول خطوة فى وضع أسس الجامعة وما زال البحث مستمراً حتى تم وضع الميثاق واجتمع المؤتمر العربى العام بقصر الزعفران بالقاهرة يوم الخميس ٨ ربيع الثانى فى عام ١٣٦٤ الموافق ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ فى الساعة الرابعة بعد الظهر برياسة محمود فهمى باشا النقراشى رئيس وزراء المملكة المصرية ووقع مندوبو الوفود العربية ما عدا ممثلو المملكة العربية السعودية والمملكة اليمنية ميثاق جامعة الدول العربية وبذلك تم ميلاد قوة لهذا الشرق يحسب لها حسابها . ثم ما لبث الأمر حتى وقعت جميع الدول العربية وصار من المقرر أن يكون ٢٢ مارس من كل عام عيد ميلاد الجامعة .

وقد نص الميثاق على أنه لكل دولة عربية مستقلة حق الانضمام للجامعة وحق الانسحاب ، وهذا الحق الأخير مقيد بشرط أن تخبر الدولة المنسحبة مجلس الجامعة قبل ذلك بسنة .

أما أهداف الجامعة فقد أوجزتها المادة الثانية من الميثاق وهى :

الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها والنظر بصفة عامة فى شئون البلاد العربية ومصالحها .

ومن أغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً بحسب نظم كل منها وأحوالها فى الشئون الآتية :

(ا) الشئون الاقتصادية والمالية ويدخل فى ذلك التبادل التجارى والجمارك والعملة وأمور الزراعة والصناعة .

(ب) شئون المواصلات ، ويدخل فى ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والبرق والبريد .

(ح) شئون الثقافة .

(ء) شئون الجنسية والجوازات والتأشيرات وتنفيذ الأحكام وتسليم المجرمين .

(هـ) الشئون الاجتماعية .

(و) الشئون الصحية .

ولا ريب فى أن الجامعة العربية قطعت شوطاً فى البحوث الثقافية وتقارب المناهج وتوحيد الثقافة ، كما فعلت فى حقل الشئون الاجتماعية بما تقيمه من الحلقات الدراسية فى هذه الناحية . ومست شوطاً واسعاً فى القضايا السياسية ولكن العرب يأملون منها أكثر وسوف يأتى

اليوم الذى يمكن لهـــذه المؤسسة أن تحدد مكانة الشرق الأوسط فى الصراع الدولى .

إن العالم العربى الذى يمتد فى سلسلة طرفها الغربى يشرف على سواحل المحيط الأطلنطى ثم تمتد مارة بالشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط فتشرف على البحر الأحمر والمحيط الهندى فى الشرق فتضم بين خدماتها شمال أفريقيا ومصر وبلاد الشام (سوريا ، فلسطين ، لبنان) والعراق وقلب الجزيرة ، تكون قوة هائلة تستطيع أن تتحكم فى التوازن الدولى .

إن لها من أمجادها ومآثرها ما يمكن أن يكون معيناً لا ينضب تستمد منه قوة تضمها إلى ما تكتسبه فى يقظتها هذه فتكون من مجموع ذلك كله مادة ممتازة تقدمها للإنسانية والحضارة .

ثبت المصادر العربية

وفيها ما نشره المستشرقون وعلقوا عليه

الطبرى : طبع أوربا من سنة ١٨٧٩ إلى ١٩٠١

نولدكه : تاريخ الفرس والعرب فى أيام الساسانيين مأخوذاً عن تاريخ الطبرى ليدن ١٨٧٩

اليعقوبى : طبع أوربا ١٨٨٣

ابن الأثير : « الكامل » طبع القاهرة ١٣٠٣

ابن خلدون : « العبر » طبع بولاق ١٢٨٤

ابن خلدون : « المقدمة » طبع القاهرة ، وطبعة باريس ١٨٥٨

ابن القفطى : « تاريخ الحكماء » طبع أوربا ١٩٠٣

المقريزى : « الخطط » طبع القاهرة ١٢٧٠

ابن دريد : كتاب الاشتقاق طبع أوربا ١٨٥٤

البيرونى : « تاريخ الشعوب الشرقية » طبع أوربا ١٨٧٨

البلاذرى : « فتوح البلدان » طبع أوربا ١٨٦٦

البلاذرى : « أنساب الأشراف » ١٩٣٦ ، ١٩٣٨

ابن الطقطقى : « الفخرى » القاهرة ١٣٤٥

أبو الفداء : القاهرة ١٩٢٥

المسعودى : طبع باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧

ابن النديم : « الفهرست » طبع لايبك ١٨٧١ — ١٨٧٢

ابن هشام : « السيرة » طبع أوربا ١٨٥٨ — ١٨٦٠

ابن سعد : « طبقات الصحابة » طبع أوربا ١٩٠٤

ابن فضلان : « رحلة » نشرها الأستاذ زكى الوليدى ١٩٣٩

محمد كرد علي : « الإسلام والحضارة العربية » القاهرة ١٩٣٦
ابن مسكويه : « تجارب الأمم »
الرذراوري : « ذيل تجارب الأمم »
انجيلوجويدي : نشر كتاب « القاسم بن إبراهيم » المسمى : الرد على اللعين الزنديق عبد الله بن المقفع عليه لعنة الله »
برغشتراسر : الإسلام والمانوية — المجلة الإسلامية — تصدر باللغة الألمانية ١٩٢٩
أبو الفرج الأصفهاني : « كتاب الأغاني » طبع بولاق ١٢٨٥ هـ
ياقوت : إرشاد الأريب « إلى معرفة الأديب » طبع ليدن ١٩٠٧ إلى ١٩٢٦
المبرد : « الكامل » طبع أوربا ١٨٦٤ إلى ١٨٩٢
ابن عبد ربه : « العقد الفريد » طبع القاهرة ١٣٢١
محمود شكري الآلوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » بغداد ١٣١٤
محمد كرد علي : « رسائل البلغاء » القاهره ١٩١٣
أبو العلاء المعري : « رسالة الغفران » القاهرة ١٩٠٣
المتنبي : « ديوان » طبع أوربا ١٨٦٠
أبو تمام : « الحماسة » طبع بولاق ١٢٩٦هـ وطبع القاهرة ١٣٤٦
فردريش ريكرت: (ترجمة الحماسة إلى اللغة الألمانية) ١٨٤٦
باول شوارتز : (ديوان عمر بن أبي ربيعة) ١٩٠٢ — ١٩٠٩
هرشفيلد : « ديوان حسان بن ثابت » ١٩١٠
جورج يعقوبي : « دراسات في شعر الشنفرى » باللغة الألمانية ١٩١٤ ، ١٩١٥
ف . ا . أرنولد : « المعلقات السبعة » ١٨٥٠
نولدكه : « المعلقات الخمسة مترجمة ومشروحة » ١٨٩٩ - ١٩٠١

شارل جيمس لايل : شرح الشعر العربي القديم وشرح المعلقات السبعة كلكتا ١٨٩٤

فردريش ريكرت : « امرؤ القيس الشاعر والملك » ١٩٢٤

سالمون غاندز : « معلقة أمرىء القيس » اطروحة ١٩١٣

أبو العتاهية : « ديوان » بيروت ١٨٨٦

أبو نواس : « ديوان » القاهرة ١٢٧٧

ابن منظور : « أخبار أبي نواس » القاهرة ١٩٢٧

عبدالرحمن الكواكبي : أم القرى المطبعة المصرية ١٩٣١

جمال الدين الأفغاني : خاطرات المطبعة العلمية بيروت ١٩٣١

عبدالرحمن الكواكبي : طبائع الاستبداد

ابن تيمية : رسائل ابن تيمية الكبرى

ابن تيمية : السياسية الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية

جورجي زيدان : مشاهير الشرق

جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده : العروة الوثقى المكتبة الأهلية بيروت ١٩٣٣

الشيخ محمد عبده : تفسير القرآن الكريم جزء عم ١٣٤١ القاهرة

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ثلاث مجلدات .

عجاج نويهض : حاضر العالم الإسلامى مع تعليقات الأمير شكيب أرسلان .

أسعد داغر : الثورة العربية الكبرى .

رشيد رضا : مجلة المنار .

أمين الريحانى : ملوك العرب .

محى الدين الخطيب : المؤتمر العربى الأول .

: ميثاق الدول العربية .

المصادر الغربية

Enzyklopaedie des Islam, Leiden 1913 ff.

C. Brockelmann. Geschichte der arabischen Literatur I 1898 Supplement dazu 1937.

W. Ahlwardt, Uber Poesie und Poetik der Araber. Gotha 1856.

Chalef El-ahmar und Josef von Hammer, Greifswald 1820.

J. Wellhausen. Das arabische Reich und sein Sturz, Berlin 1602.

A. von Cremer, Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen, Wien 1875-1877.

Culturgeschichtliche Streifzuge auf dem Gebiete des Islams, Leipzig 1873.

Geschichte der herrschenden Ideen des Islams, Leipsig 1868.

A. Mez, Die Renaissance des Islams, Heidelberg 1922.

A. Muller, Der Islam im Morgen-und Abendland, Berlin 1885-1887.

I. Goldziher, Muhammedanische Studien, Halle a. S. 1889-1890.

Abhandlungen zur arabischen Philologie I und II, Leiden 1896 und 1899.

O. Rescher, Abriss der arabischen Literaturgeschichte I, Stuttgart 1925.

G. Van Vloten, Recherches sur la Domination arabe, le Chiitisme et les Croyances messianfques sous le Khalifat des Omayyades. Amsterdam 1894. (Arabische Ubersetzung, Kairo 1934.)

G. Vajda, Les zindiqs en pays d'Islam au début de la période abbaside. Rivista degli Studi Orientali XVII, 174-229.

Stuhlmann. Der kamrf um arabien Berlin 1916.
E. Topf : die Staatenbildungen in der arabischen teilen der turkei Hamburg 1929.
E. Jung : la Révolte arab. Paris 1925.
E. Nolde Reise nach innerarabien 1895.
G. Bell : the letters of gertrude Bell 1924.
M. Hartmann : Reisebriefe aus syrien Berlin 1913.
H. Rohde ; der kampf um oreint und islam Stuttgart 1924.

obeikandi.com

الثبت

الإهـــداء ٣

المقـــدمة ٥

الفصل الأول ١١

العرب والفرس قبل الإصلام — العرب والفرس فى صدر الإسلام — المواقع الفاصلة بين العرب والفرس — موقعة القادسية — موقعة جاولاء وموقعة نهاوند — اختلاط العناصر بعد هذا الفتح — أثر هذا الاختلاط فى التقاليد والعادات .

الفصل الثانى ٢١

المولى — تعريف المولى — مكانة المولى فى عيون العرب .

الفصل الثالث ٣٠

مقاومة الموالى فى عصر صدر الإسلام — اغتيال الخلفاء — مقاومة الموالى فى أيام بنى أمية .

الفصل الرابع ٣٧

حركة الموالى فى قيام الدولة العباسية — أبو مسلم — البرامكة — البرامكة ورواية التاريخ والأدب ، والانتحال ووضع الكتب ، والترجمة والنشر — رواة التاريخ وواضعو الأخبار — أبو عبيدة « علان » رواة الأدب وواضعو الشعر — حماد الراوية — خلف الأحمر — المترجمون أبان بن عبد الحميد اللاحقى — الفضل بن سهل — واضعو الكتب عند العرب — سهل بن هارون — سعيد البختكان ومحمد بن الليث بن الخطيب نكبة البرامكة .

الفصل الخامس ٥٣

الموالى والإسلام — أتباع أبى مسلم وفرقة الخرمية — المقنع الخراسانى والروانديه — الباطنية والقرامطة — ابن المقفع ومعارضته القرآن — الحلاج والحلول — حيدر بن كاووس الأشين ومقاومة الإسلام .

الفصل السادس ٧٣

الموالى والشعر العربى — تمهيد فى الشعر الجاهلى — الشعر فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية — اتجاه الشعر فى صدر الدولة العباسية .
المانوية والمزدكية فى شعر بشار بن برد وأبى نواس وأبى العتاهية وما تركه هؤلاء الشعراء الثلاث من أثر فى اتجاه الشعر العربى .

الفصل السابع ١٠٥

تطور حركة الموالى واتساع سلطانهم وانهيار البلاد — أسفار مرداويج البويهيون — أمير الأمراء معز الدولة أحمد بن بويه — بختيار (عز الدولة) وما آلت إليه الحالة فى أيامه — عضد الدولة وأطماع البويهيين فى الخلافة بهاء الدولة وخلع الطائع لله — انهيار بغداد .

الفصل الثامن ١٢١

المحاولة العربية — سيف الدولة — المتنبى — المزيديون — ابن تيمية وتلامذته ، ابن عبد الوهاب ، جمال الدين الأفغانى ، محمد عبده ، عبد الرحمن الكواكبى .

الفصل التاسع ١٧٤

اليقظة العربية الحديثة — عوامل اليقظة — محمد على — البعثات التبشيرية — الأدباء والكتاب — المؤتمر العربى الأول — القبض على عزيز على المصرى ونتائجه — العرب والأتراك عند انذلاع لهيب الحرب العالمية — العرب والحلفاء — إعلان الثورة ومكاتبة العرب — عهود الحلفاء ، اتفاق سايكس — بيكو ، وعد بلفور — اصطدام العرب بالحلفاء — إعلان الاستقلال ومبايعة الملك فيصل وما ترتب على ذلك — الحرب بين فرنسا والعرب وخروج فيصل من الشام — الانتداب على العراق ، مبايعة الملك فيصل وتتويجه ملكا على العراق — بعض الحركات الاستقلالية والثورات — سوريا ولبنان — مصر شبه الجزيرة العربية — جامعة الدول العربية

ثبت المصادر العربية وفيها ما نشره المستشرقون وعلقوا عليه
المصادر الغربية